

الفصل الثاني والعشرون

فرانسيس الأول والإصلاح الديني في فرنسا

١٥١٥ - ٥٩

١ - الملك الأنف الكبير

ولد تحت شجرة في كوفياك في اليوم الثاني عشر من سبتمبر عام ١٤٩٤ ؛ وجده هو شارل أورليان الشاعر ، وربما كان الغناء وحب الجمال في دمه ؛ وأبوه شارل أمير فالوا وأورليان ، كونت أنجوليم ، الذي مات بعد أن اقترف الكثير من الآثام ، وكان فرانسيس لم يتجاوز بعد العام الثالث من عمره . وأمه لويز أميرة سافوي ، وهي امرأة على جمال واقتدار وطموح ، تتعشق الثراء والسلطة . وقد ترملت في السابعة عشرة من عمرها ، وأبت الزواج من هنري السابع ملك إنجلترا ، ووقفت جهدها - إذا استثنينا بعض العلاقات المحرمة - على إعداد ابنها ليكون ملكاً على فرنسا ؛ ولم تشعر بالأسى عندما وضعت آن أميرة بريتانى ، زوجة لويس الثاني عشر ، ولداً ميتاً ، وتركت لفرانسيس ولاية العهد . وعين لويس ، وقلبه مفعم بالحزن ، فرانسيس دوقاً لفالوا ، ورتب له المربين لتلقينه فن تدبير الملك . وأسبغت عليه لويز ، وكذلك أخته مرجريت ، من عاطفة الأمومة ما وصل إلى درجة الوله ؛ وأعداه ليكون ملكاً على قلوب النساء . وكانت لويز تناديه « مليكى » مولاي ، قيصرى ؛ وغذته بقصص الفروسية وتباهت بمغامراته الغرامية ، وكان يغمى عليها عندما ترى الضربات تكال

له في المبارزات التي شغف بها . وكان شاباً وسيماً مرحباً أنيساً شجاعاً ، يواجه الأخطار بصدر رحب وكأنه رولان أو أماديس ، وعندما أفلت خنزير برى من قفصه ، وانطلق يعيثُ فساداً في فناء قصر فرانسيس ، واجه الأمير الوحش ، وذبحه في بطولة رائعة ، في الوقت الذي فرّ فيه الآخرون لا يلوون على شيء .

وعندما بلغ الثانية عشرة من عمره (١٥٠٦) نخطبوا له كلود أميرة فرنسا ، ابنة لويس الثاني عشر ، البالغة من العمر سبع سنوات . وكانت موعودة بأن تكون خطيبة للصبى الذي قدر له أن يصبح الإمبراطور شارل الخامس ، إلا أن الخطبة فسخت لكي تتجنب فرنسا الوقوع في براثن أسبانيا ، وكان هذا موضوعاً واحداً من مئات موضوعات الاستفزاز التي حفزت إلى الصراع بين بيتي هابسبورج وفالوا من الفتوة إلى الموت . وعندما بلغ فرانسيس الرابعة عشرة من عمره ، أمر بأن يهجر والدته وأن ينضم إلى لويس في شينون ، وتزوج كلود عندما بلغ العشرين ، وكانت فتاة بدينة بليدة عرجاء ، ولودا صالحة ، وأنجبت منه أطفالاً في أعوام ١٥١٥ ، ١٥١٦ ، ١٥١٨ ، ١٥٢٠ ، ١٥٢٢ ، ١٥٢٣ ، وماتت عام ١٥٢٤ .

وفي غضون ذلك أصبح ملكاً (أول يناير عام ١٥١٥) ، ونعمت السعادة قلوب الجميع ، وعلى رأسهم أمه التي أنعم عليها بدوقيتي أنجوليم وأنجو . وكونتيتي ماين وبوفور ، وبارونية أمبواز . بيد أنه لم يكن أقل كرمًا مع الآخرين - النبلاء والفنانين والشعراء والوصفاء العشيقات . وكان صوته المرح ودمائته وهدوء طبعه وحيويته المتدفقة وجاذبيته ، وجمعه بين سمات الفروسية ومزايا عصر النهضة كل ذلك جعله أثيراً لدى أبناء جلدته ، بل وحاشيته . واغتبطت فرنسا وعلقت عليه آمالاً عريضة . كما حدث في إنجلترا إبان تلك السنوات التي حكم فيها هنري الثامن ، وفي الإمبراطورية إبان عهد شارل الخامس ، وبدا العالم فتياً من جديد منتعشاً

بشباب الملك . وصمم فرانسس ، وكان في تصميمه أقوى من ليو العاشر ، على أن ينعم بعرضه .

ترى ماذا كان في الواقع ذلك الرجل الذي يجمع بين صفات آرثر ولانسلوت ؟ إنه كان رائع التكوين من الناحية البدنية ، لو لم يكن أنفه كبيراً على ذلك النحو . وقد أطلق عليه بعض معاصريه الذين يفتقرون إلى الاحترام لقب « الملك الأنف الكبير » . وكان فارح القامة ، طوله ست أقدام ، عريض المنكبين ، خفيف الحركة قوى البنية . وكان في وسعه أن يجرى ويقفز ، ويصارع ويبارز أمهر الحصوم ، وكان يستطيع أن يستعمل سيفاً بمقبضين أو رمحاً ثقيلاً . وكانت لحيته الخفيفة وشاربه الرفيع لا يخفيان شبابه ، فقد كان في الحادية والعشرين عندما توج ملكاً . وكانت عيناه الضيقتان تتهان على التيقظ وخفة الروح ، وإن كانتا لا تدلان على اللهاء أو العمق . وإذا كان أنفه يدل على الفحولة ، فإنه كان يطابق شهرته . وقد كتب برانتوم ، الذي لا يعد كتابه « نسوة عاشقات » مصنفاً تاريخياً ، في ذلك الوقت يقول : « لقد عشق الملك فرانسس الكثيرات ، وأحب الكثيرات إلى حد الإفراط ، ولما كان شاباً فتياً حراً فقد كان يحتضن الواحدة حيناً ، والأخرى أحياناً بلا اكتراث . . . ومن أجل ذلك أصيب بمرض الجدري الذي عجل بنهايته » (١) . ويروى أن أم الملك قالت إنه لقي جزاءه حيث اقترف خطيئته (*) . وربما بالغ التاريخ في تنوع غرامياته . ومهما كان عددها ، فإنه ظل وفياً مخلصاً في الظاهر أولاً لفرانسواز دي فوا ، كونتيسة دي شاتوبريان ، ثم لأن دي بسليو التي أنعم عليها بلقب دوقة ديتامت ، وذلك من عام ١٥٢٦ إلى أن قضى نحبه ونشرت عنه

(*) وما هو أقرب إلى الأسطورة ، قصة المحامي الذي وقع الاختيار على زوجته لابل فرونييز (بياعة الأدوات الحديدية الجميلة) للمخدع الملكي ، فما كان منه إلا أن أصاب نفسه بعدوى المرض فنقل إليها مرض الزهري حتى تصيب به الملك .

الشائعات الباطلة ماثت من الحكايات التي تدور حول مغامراته الغرامية -
وأنة حاصر ميلان لا حباً في ميلان ، ولكن من أجل سواد عيني فتاة
لا تنسى ، رآها هناك (٣) ، أو لأن امرأة لعوباً في بافيا أغرته وقادته إلى
مجرور مأساته (٤) . ولا يسعنا على أية حال إلا أن نخالطنا شيء من العطف على
ملك مرهف الحس إلى هذا الحد ، لقد كان قادراً على الحنان والوله إلى
درجة الخيال : وعندما رأى أن يطلق ابنه من كاترين دي مديتشي بعد
ان ثبت أنها عاقر أثنته دموعها عن عزمه (٥) . وفي هذا قال أرازموس
« لا يمكن أن يتخيل امرؤ وجود شخص أرق عاطفة من فرانسيس (٦) . »
وإذا كان قد قال ذلك بسبب العطف لبعده المسافة ، فإن بودس عالم
الإنسانيات المتخصص في شتون فرانسيس وصفه بأنه « مهذب رقيق من
السهل الحصول على رضاه (٧) » .

وكان معجباً بنفسه لدرجة لا تفتظر من رجل . وكان ينافس هنري الثامن
في فخامة ثيابه الملكية وفي إهمال فراء قلنسوته . واتخذ السمندل رمزاً له ،
مما يدل على الإصرار على البعث من كل احتراق ، بيد أن الحياة لسعته مع
ذلك بشواظها . وكان يجب أن يقابل بمظاهر التبجيل والامتياز والتلق ،
ويضيق ذرعاً بالنقد . وأمر يجلد ممثل لأنه هجا الحاشية ، وقد واجه لويس
الثاني عشر لذعات نفس الملاحظات الساخرة فاكتفى بالابتسام (٨) . وكان
جاحداً للجميل ، كما حدث مع آن دي مونتورنسي ، وظالماً كما كان مع
شارل البوربوني ، وقاسياً كما كان مع ممبلانساي ، ولكنه كان على الحملة
معروفاً بالصنم والكرم . وكان الإيطاليون يتعجبون من سخاوه (٩) . ولم يظهر
في التاريخ حاكم يفوقه في الرفق بالفنانين ، وكان يعشق الجمال عشقا يتسم
بالقوة والفطنة ، وكان على استعداد لأن ينفق على الفن كما ينفق على
الحرب ، وقدم نصف ما أنفق من مال في عصر النهضة الفرنسية .

ولم تكن قدرته الذهنية تضارع جاذبية شخصيته ، وكان يعرف القليل من

اللاتينية ، ولا يعرف شيئاً من اليونانية ، بيد أنه أدهش الكثيرين بتنوع معارفه ودقتها عن الزراعة والصيد والجغرافية والعلوم الحربية والأدب والفن ، وكانت الفلسفة تلذ له عندما لا تتعارض مع الحب أو الحرب ، وكان شديد التهور والاندفاع إلى درجة لا يصلح معها قائداً عظيماً ، خفيف الروح يعشق المتعة إلى حد لا يصلح معه لأن يكون سياسياً كبيراً ، وكانت تسحره المظاهر فلا ينفذ إلى جوهر الأمور . ويتأثر في لطف بالخللان والحظايا فلا يستطيع أن يختار أصح من لديه من القادة والوزراء ، وكان شديد الصراحة لا يخفي أمراً إلى حد لا يصلح معه لأن يكون دبلوماسياً قديراً . وحزنت أخته مرجريت بسبب عجزه عن الحكم ، وتلبأت بأن الإمبراطور الداهية العنيد سوف يزيحه عن فرسه في مقارعتها التي دامت مدى الحياة . أما لويس الثاني عشر الذي كان يعجب به « بوصفه شاباً شهياً رقيقاً » . فقد رأى في توجس إفراط خلفه في الملذات . وقال : « لا فائدة من كل ما نعمل ، إن هذا الولد العظيم سوف يفسد كل شيء » (١٠) .

٢ - فرنسا في عام ١٥١٥

كانت فرنسا وقتئذ تنعم برخاء تجود به تربة سخية ، ويتحقق على يد شعب ماهر يحسن التدبير وحكم خير . وكان عدد السكان زهاء ١٦.٠٠٠.٠٠٠ نسمة في مقابل ٣.٠٠٠.٠٠٠ نسمة في إنجلترا و ٧.٠٠٠.٠٠٠ نسمة في أسبانيا . وكانت باريس بسكانها البالغ عددهم ٣٠٠.٠٠٠ نسمة تعد أكبر مدينة في أوروبا بعد القسطنطينية . وكان البناء الاجتماعي نصف إقطاعي : فكل الفلاحين تقريباً كانوا يملكون الأرض التي يفاخونها ، ولكنهم كانوا يحتفظون بها عادة في إقطاع من الأرض - وكانوا يدفعون مكوساً أو يؤدون خدمات - لسيادة وفرسان مهمتهم تنظيم الزراعة وتقديم الحماية العسكرية لإقليمهم وللأمة . وأدى التضخم الناتج من تكرار خفض العملات والتعدين

أو استيراد المعادن الثمينة إلى تيسير دفع المكوس المالية التقليدية ، وأتاحت للفلاحين إمكانية شراء الأرض وتخصيصها من الملاك الأثرياء والنبلاء الفقراء ، ومن ثم انتشر في الريف رخاء أشاع المرح في نفس الفلاح الفرنسي وجعله يتشبث بعقيدته الكاثوليكية ، بينما كان الفلاح الألماني يقوم بثورة اقتصادية ودينية ، وحفزت الملكية الطاقاة الفرنسية فجنت من الأرض أفضل أنواع القمح والكروم في أوروبا ، وسمحت الماشية وتضاعف عددها ، وكان اللبن والزبد والجبين يقدم على كل مائدة ، والدجاج وغيره من الدواجن تربي في كل فناء تقريباً ، وتقبل الفلاح الرائحة المنبعثة من حظيرة خنازيره كما لو كانت شذى مباركاً من أعراف الحياة .

أما العامل في المدينة - وهو في الغالب صانع ماهر يعمل في حانوته - فلم يكن له نصيباً من هذا الرخاء ، لقد أدى التضخم إلى سرعة ارتفاع الأسعار بصورة تفوق زيادة الأجور ، وساعدت التعريفات الجمركية التي فرضت لحماية السلع المحلية والاحتكارات الملكية ، مثل استخراج الملح ، على ارتفاع نفقات المعيشة . وأضرب العمال المتدمرون ، ولكنهم جميعاً ، على وجه التقريب ، لم يظفروا إلا بالفشل والخيبة . وحرّم القانون على العمال الاتحاد لأغراض اقتصادية . وكانت القوافل التجارية تنتقل متراخية على طول الأنهار الفيضية وتسير بصعوبة على طول الطرق السيئة ، وتدفع لكل سيد ضريبة للمرور في أملاكه ، وكانت ليون التي تلتقي فيها تجارة البحر الأبيض المتوسط القادمة صعوداً من الرون بسيل البضائع القادمة من سويسرة وألمانيا ، تعد ثانياً مدينة بعد باريس في الصناعة الفرنسية . والثالثة بعد أنتورب باعتبارها سوقاً للأوراق المالية أو مركزاً للاستثمار والتمويل . وكانت التجارة تنطلق من مارسيليا ، وتجوب البحر الأبيض المتوسط ، وتجنّب الربح بفضل العلاقات الودية التي جرّو فرانسيس على الاحتفاظ بها مع سليمان والأثراك .

وغنم فرانسيس من هذا الاقتصاد ، على غرار ما كانت تفعله الحكومات ،
دخولا وصلت إلى الحد الذي يدفعه إلى التسامح ، وكانت ضريبة الملك
أو السيد ، التي تفرض على الرعوس والأموال ، تثقل كاهل الجميع ،
ما عدا النبلاء ورجال الدين ، وكان الآخرون يدفعون للملك ضرائب
عشور ومنحا كنسية ، أما النبلاء فكانوا يقدمون الفرسان ويجهزونهم ،
وكان هؤلاء الفرسان لا يزالون عماد الجيوش الفرنسية وقوتها الضاربة .
وتلقى فرانسيس درساً من البابوات فباع - وأنشأ للبيع - ألقاباً للنبلاء
ومناصب سياسية . وبهذا كون الأغنياء الجدد على الأيام طبقة أرستقراطية
جديدة (كما حدث في إنجلترا) ، وأسس المحامون بشرائهم للمناصب ،
بيروقراطية قوية كانت تدير حكومة فرنسا - وأحياناً بغير علم الملك .

ولم يجد الملك بسبب انهماكه في الملذات وقتاً كافياً يدير فيه شئون
الحكم ، فأتاب عنه في تولى مهامه ، حتى في رسم سياساتها ، رجالاً مثل
أمير البحر - بونيفيه وأن دي مونمورنسى والكردينالين دوبرا ودي
تورنون وللفيكونت دي لوتريك . وكانت هناك ثلاثة مجالس تعاون هؤلاء
الرجال والملك وتشير عليهم بالرأى ، وهي : مجلس خاص من النبلاء ،
ومجلس أخص للشئون ، ومجلس موسع ينظر في طلبات الاسترحام المقدمة
إلى الملك . وفيما عدا هذا كان المجلس النيابي في باريس ، ويتألف من ٢٠٠
عضو من العلمانيين ورجال الدين ، يعينهم الملك مدى الحياة ، بمثابة محكمة
عليا . وكان له الحق في الاعتراض عليه عندما يرى أن مراسيمه تتعارض
مع قوانين فرنسا الأساسية ، وكانت مراسيمه تظل تفتقر إلى قوة القانون إلى
أن تقوم هذه الهيئة القديمة بـ « تسجيلها » - بل بالتصديق عليها في
واقع الأمر .

ولما كان المحامون والشيوخ يغلبون على المجلس النيابي في باريس ، فقد
أصبح الجهاز القومي السياسي للطبقات الوسطى وأضحى - بعد السوربون -

أكبر هيئة محافظة في فرنسا . وكانت المجالس النيابية المحلية والمحافظون الذين يعينهم الملك ، يديرون شؤون الحكم في المقاطعات ، وتجاهل الجميع حيناً مجلس الطبقات ، وحلت جباية الضرائب محل المنح التي تقدم على سبيل المساعدة ، وتضاءل دور طبقة النبلاء في الحكومة .

وكان النبلاء يقومون بوظيفة مزدوجة : تنظيم الجيش وخدمة الملك في البلاط . وكانت الحاشية التي تتألف من الرؤساء الإداريين وروؤوس النبلاء وزوجاتهم وأبناء الأسرة وأصفياء الملك ، قد أصبحت وقتذاك على رأس فرنسا وفي الصدر منها ، ومرآة تعكس البدع والمهرجان الملكي الدائم المتحرك ، وعلى قمة هذه الدورة كان مدير قصر الملك الذي كان ينظم كل شيء ويرعى البروتوكول ، ثم الحاجب المكلف بغرفة نوم الملك ، ثم أربعة من السادة الموكلين بمخدع الملك ، أو كبار الوصفاء الذين كانوا دائماً رهن إشارة الملك لتلبية رغباته ، وكان هؤلاء الرجال يستبدل بهم آخرون كل ثلاثة أشهر ، وذلك لمنح غيرهم من النبلاء فرصة يحل فيها الدور عليهم للقربى البهيجة من الذات الملكية . ولكيلا يتعرّض أحد للإغفال كان هناك عدد من السادة يتراوح بين عشرين وأربعة وخمسين لمخدع الملك يخدمون الأربعة الكبار ، يضاف إلى هؤلاء اثنا عشر وصيفاً للمخدع ، وأربعة حجاب للمخدع ، وكانت أجنحة نوم الملك تلقى العناية المناسبة ، وكان هناك عشرون سيداً يعملون مشرفين على مطبخ الملك ، وينظمون أعمال جماعة تتألف من خمسة وأربعين رجلاً وخمسة وعشرين من سقاة الخمر . وكان هناك نحو ثلاثين غلاماً من وصفاء الشرف - أولاد لهم نسب جليل - يعملون وصفاء للملك ، ويتألقون في زى مفضض خاص ، وجمع من أمراء السر يضاعفون من طاقة الملك على التدوين والتذكر ، وكان القس الأكبر للكنيسة الملكية كردينالا ، ويشرف أسقف على المحراب أو المصلى ، وسمح لخمسين من الأساقفة الأبروشيين بإسباغ البركة على البلاط ، وبذلك

يزدادون شهرة . وأنشئت مناصب شرف مثل : « خدم الغرفة الخاصة بمرتب قدره ٢٤٥ جنياً ، وقد منحت للقيام بمهام مختلفة ، كالتي أنعم بها على علماء مثل بوديه وشعراء مثل مارو . ولا يفوتنا أن نذكر سبعة أطباء وسبعة جراحين وأربعة حلاقين وسبعة مرتلين وثمانية صناع ماهرين وثمانية كتبة للطبخ وثمانية حجاب بقاعة الاجتماعات . وكان لكل ولد من أبناء الملك خدمه الخاصون به . . . مشرفون وكتاب سر ومربون ووصفاء وخدم : وكان لكل واحدة من الملكتين في البلاط - كلود ومرجريت - بطانة خاصة تتألف من خمس عشرة سيدة أو عشر سيدات يعملن وصيفات وست عشرة أو ثمان من وصيفات الشرف - آنسات . ومن أعظم ما اشتهر به فرانسيس أنه جعل للنساء مكانة عليا في بلاطه ، وأنه كان يغمز بعين الخبير إلى علاقتهن غير الشرعية ، ويشجع ويستمتع باستعراض حلين ومفاتهن الرقيقة . وقال : « أي بلاط يخلو من السيدات حديقة مجردة من الأزهار (١١) » : ولعل النساء - اللاتي وهبن جمال الفن ، الذي لا تلحقه الشيخوخة - هن اللاتي أضفين على بلاط فرانسيس الأول رونقاً جميلاً وحافزاً على البهجة لا نظير لهما حتى في القصور الإمبراطورية بروما : وكان كل الحكام في أوروبا يفرضون المكوس على شعوبهم ليهيئوا لأنفسهم صورة مصغرة لهذا الحلم الباريسي .

وتحت هذا السطح المصقول كانت هناك قاعدة عريضة من الخدم : أربعة من الطهارة ، وستة من مساعدى الطهارة ، وظهارة متخصصون في أطباق الحساء أو المرق المتبل أو الشواء ، وعدد لا يحصى من الأشخاص ، لتقديم الطعام إلى الملك وخدمته على المائدة ، وفي المطبخ المشترك للحاشية ، وتلبية احتياجات السيدات والسادة والسهر على راحتهم ، وكان هناك موسيقيو البلاط يقودهم أشهر المغنين والملحنين والعازفين على الآلات في أوروبا خارج روما ، ويشرف على الحظائر الملكية مدرب للخيل ، وخمسة وعشرون من

من رؤساء الركائب النبلاء ، وحشد من الخوذية والسواس ، وهناك رؤساء يشرفون على الصيد ، ومائة كلب و ٣٠٠ صقر يدرّبها ويعنى بها مائة مدرب للصقور تحت إشراف كبير مدربي الصقور . وتألف حرس الملك من أربعائة من الرماة ، يضيئون البلاط بأزيائهم الملونة .

ولم يكن هناك مبنى في باريس يكفي لمآدب البلاط وحفلاته الراقصة وحفلات الاستقبال الدبلوماسية . وكان قصر اللوفر وقتذاك حصناً كثيباً ، فانصرف عنه فرانسيس إلى القصور المنسقة المعروفة باسم ليه تورنل (الأبراج الصغيرة) قرب الباستيل ، أو إلى القصر الفسيح الذي اعتاد المجلس النيابي أن ينعقد فيه ، ومع أنه كان لا يزال يعشق الصيد فقد انتقل إلى فونتينباو أو إلى قصوره الممتدة على نهر اللوار في بلوا أو شامبور أو امبواز أو تور - ساحباً معه نصف الحاشية و ثروة فرنسا . وقد وصف شليني بمبالغته المعهودة ولي نعمته الملك بأنه كان يسافر ومعه بطانة مكونة من ١٨٠٠٠ شخص و ١٢٠٠٠ جواداً (١٢) . واحتج السفراء الأجانب على ما يتكبّدونه من نفقات ومشقة ، في سبيل لقاء الملك أو مسائرتة ، وإذا وجدوه فإنه يكون على الأرجح ، نائماً في فراشه حتى الظهر ، يفيق من المتع التي نعم بها في الليلة الماضية ، أو منصرفاً إلى ما يلزم لرحلة صيد أو مباراة للفروسية . وكانت نفقات هذا المجد الطواف باهظة ، وكانت الخزانة دائماً على شفا الإفلاس ، والضرائب ترتفع على الدوام ، والمصرفيون في ليون يُكرهون على تقديم قروض للملك ، يتعرضون فيها للمخاطر . وعندما أدرك الملك عام ١٥٢٣ أن نفقاته تتجاوز موارده ، وعد بوضع حد لإشباع رغباته الشخصية « وهي لا تشمل على أية حال المطلب العادي لاحتياجاتنا ومتعنا القليلة (١٣) » . وكان يلتمس لنفسه عنراً في تبذيره بحاجته إلى التأثير في المبعوثين والتغلب على النبلاء الطموحين ، وإدخال البهجة على قلوب العامة ، ورأى أن الباريسيين يتعطشون للعروض ، وأن إعجابهم بأبهة ملكهم يفوق استيائهم منه .

وأصبحت حكومة فرنسا آنذاك مزدوجة الجنس . فكان فرانسس يحكم في الظاهر حكماً مطلقاً ، بيد أنه كان يعشق النساء إلى درجة جعلته يخضع لأمه وشقيقته بل وزوجته . ولا بد أنه كان يجب كلود إلى حد ما لأنها ظلت على الدوام حاملاً منه ، وقد تزوجها لأسباب تتعلق بمصلحة الدولة ، وشعر بأن من حقه أن يقدر نساء أخريات خلقن في صورة فنية أجمل منها . وحدث الحاشية حدو الملك في ممارسة فن فحش ظريف . ووطن رجال الدين أنفسهم على قبول هذا الوضع بعد إبداء الاعتراض المناسب ، أما الشعب فلم يبد أي اعتراض ، ولكنه قلد شاكرآ سنة الحاشية الدمشة - ما عدا فتاة واحدة ، قيل لنا إنها شوهدت جمالها عمداً لتنجو من الفسق الملكي (١٥٢٤) (١٤) .

وكانت أقوى النساء نفوذاً في البلاط والدة الملك ، وقالت لويز أميرة سافوي إلى قاصد رسولي : « وجه خطابك لي ، وسوف نسير في طريقنا ، وإذا شكنا الملك فإننا سنتركه يتكلم كما يشاء (١٥) » ، وكثيراً ما كانت على صواب في نصيحتها . وعندما تولت الحكم كنايئة للملك ، أصبحت البلاد خيراً مما كانت عليه بين يديه المتراحتين . ولكن أطعائها دفعت دوق بوربون إلى خيانة الوطن ، وأدت إلى هلاك جيش فرنسي جوعاً في إيطاليا . وغفر لها ابنها كل شيء ، وشعر بالشكر لأنها جعلت منه إلهاً .

٣ - مرجريت أميرة ناغار

ولعله كان يجب شقيقته حباً لا يفوقه إلا حبه لأمه ، وإن كان يزيد على حبه لعشيقاته - وقد منحته موازرتها شيئاً أقل خلوداً وعمقاً من تمجيدها المجرد من الأنانية . وكانت لا تعيش إلا للحب - حب أمها وشقيقها وزوجها ، وهو حب أفلاطوني وحب ديني صوفي . وثمة حكاية لطيفة تقول : « لقد ولدت وهي تبسم ، وتمد يدها الصغيرة لكل

قادم (١٦) « وقد أطلقت على أمها وشقيقتها ونفسها اسم « ثالوثنا » ، وقنعت بأن تكون « الزاوية الصغرى » في ذلك « المثلث المتساوي الأضلاع (١٧) » . وكانت بحكم مولدها مرجريت أميرة أنجوليم وأورليان وقالوا : وتكبر فرانسيس بعامين ، فأسهمت في تنشئته وشاركته ألعاب الطفولة ، وكانت بمثابة « أمه وعشيقته وزوجته الصغيرة (١٨) » . وسهرت عليه في كلف شديد كما لو كان إلهاً مخلصاً قد تحول إلى إنسان ، وعندما وجدت أنه كان مسرفاً في شهواته الجنسية مثل « الساطير » تقبالت ذلك التصرف منه باعتباره حقاً لإله من آلهة الإغريق ، على الرغم من أنها بالذات لم تلحقها أى لومة من بيتها . وقد فاقت فرانسيس في الدراسات ، ولكنها لم تضارعه قط في تقديره للفن بعين خبيرة . وتعلمت الإسبانية والإيطالية واللاتينية واليونانية وبعض العبرية ، وأحاطت نفسها وقد تملكها رغبة جامحة ، بالأدباء والشعراء وعلماء اللاهوت والفلاسفة ، ومع ذلك فإنها كانت تتحول يوماً بعد يوم إلى امرأة جذابة ، ولم تكن جميلة الجسد إذ كان لها ذلك الأنف الطويل الذى اشتهر به آل قالوا ، ولكنها كانت ذات سحر أخاذ بفضل مفاتن شخصيتها وذكائها . وكانت عطوفاً ، لطيفة كريمة حنوناً ، وكثيراً ما كانت تندفع في مجون مرح . وكانت تعد من أبرع الشواعر في هذا العصر ، وكان بلاطها في نراك أوبو من أعظم المراكز الأدبية تألقا في أوروبا ، وكان كل إنسان يحبها ويود أن يكون بقربها ، وأطلق عليها أهل ذلك العصر الرومانسى الساخر لقب لؤلؤة آل قالوا - لأن مرجريتا Margarita باللاتينية معناه لؤلؤة ، وانتشرت أسطورة جميلة تقول إن لويز أميرة سافوى حملت بها بعد أن ابتلعت لؤلؤة .

وتعد رسائلها لأخيها من أجمل وأرق ما كتب في الأدب . ولا بد أنه كان يطوى جوانحه على الكثير من الحبر ، ليفترع منها مثل هذا الإخلاص . وكانت غرامياتها الأخرى تتفاوت مداً وجزراً وتناجح أو تفتر ، أما هذه

العاطفة الطاهرة فقد استمرت نحسين عاماً وكانت قوية على الدوام : وإن
نسبنا ذلك الحب كادت تطهر هواء ذلك العصر المعطر .

وقد أثار جاستون دي فوا ، ابن أخى لويس الثاني عشر ، أول مشاعر
غرامها ، ثم انطلق إلى إيطاليا ليغزو ويقضى نحبه في رافنا (١٥١٢) ،
وسقط جيوم دي بونيفيه صريع هواها ، ولكنه وجد أن قلبها لا يزال
مشغولاً بجاستون ، فزوج إحدى وصيفاتها ، ليكون بالقرب منها ، وزفت
في السابعة عشرة من عمرها (١٥٠٩) إلى شارل ، دوق أنسون ، وكان
بدوره سليلاً لأسرة ملكية . وقد دعا فرانسيس إلى هذا الزواج توثيقاً
لأواصر المصاهرة بين أسر متنافسة إلى درجة مزعجة ، بيد أن مرجريت
وجدت أن من العسير عليها أن تحب هذا الشاب ، وعرض عليها بونيفيه أن
تلتمس السلوى عن ذلك بالخنا ، فشوهت وجهها بحجر حاد لتخمد سحر
فتنتها له ، وذهب كل من لنسون وبونيفيه إلى إيطاليا للقتال من أجل
فرانسيس ، ومات بونيفيه ميقة الأبطال في بافيا ، أما لنسون فيقال إنه فر
وقت تأزم المعركة ، وعاد إلى ليون ، ليجد نفسه موضع الاحتقار من
الجميع ، وانتهرت له لويز أميرة سافوى ، ووصفته بأنه جبان ، فسقط مريضاً
بداء ذات الجنب ، ووصفت عنه مرجريت ، ومنهتت على تمريره في حنان
ولكنه مات (١٥٢٥) .

وبعد عامين من ترميل مرجريت ، تزوجت ، وكانت وقتذاك في الخامسة
والثلاثين ، من هنرى دلبريه ، الملقب بملك نافار ، وهو شاب في الرابعة
والعشرين من عمره ، ولما كان هنرى مبعداً عن إمارته بسبب مطالبة
فرديناند الثاني وشارل الخامس بنافار ، فإن فرانسيس نصب هنرى حاكماً
على غينا ، وأنشأ بلاطاً مصغراً في نيراك وأحياناً في بوفي جنوب غربى
فرنسا ، وعامل مرجريت معاملة الأم بل الحماة تقريباً ، ولم يحد حدوها في
إخلاصها لعهود الزواج ، واضطرت إلى أن تلتمس لنفسها السلوى بالقيام

بدور المضيفة والحامية لكتاب وفلاسفة ولاجئين من البروتستانت . وأنجبت عام ١٥٢٨ ابنة هنرى هي جان دلبريه ، التي قدر لها أن تحظى بالشهرة باعتبارها أم هنرى الرابع ، وبعد عامين أنجبت ابناً مات في مرحلة الطفولة ، ومنذ ذلك لم تلبس إلا ثياب الحداد . وكتب لها فرانسيس رسالة تفيض ورعاً وحناناً كأي رسالة يمكن أن نتوقعها من يراعها . ومهما يكن من شيء فإنه سرعان ما أمرها هي وهنرى بتسليم جان له ، لتنشأ بالقرب من البلاط الملكي . فقد خشى أن يخطبها هنرى لفيليب الثاني ملك أسبانيا ، أو أن تشب بروتستانتية . وكان هذا الفراق أشد النوائب الكثيرة التي أصابت مرجريت قبل وفاة الملك ولكنه لم يصددها عن الإخلاص له . وإنه لأمر يدعو إلى الأسى ، وإن كان هذا ضرورياً أن نروى ما حدث عندما أمر فرانسيس جين بالزواج من الدوق دى كليف ، ورفضت جين ، فأيدت مرجريت الملك إلى حد أنها أصدرت تعليماتها لمربية جين بجلبها إلى أن تدعن . وضربت جين مراراً عديدة ، ولكن جين الشجاعة - وكانت فتاة في الثانية عشرة من عمرها - أصدرت وثيقة موقعة منها نصت على أنها إذا أكرهت على الزواج فإنها سوف تعتبره لاغياً ، ومع ذلك فقد أعدت الترتيبات للزفاف على أساس نظرية تقول إن حاجات الدولة هي القانون الأعلى ، وقاومت جين حتى آخر لحظة ، وكان لا بد من حملها إلى الكنيسة حملاً ، وما أن انتهت مراسم الحفل حتى فرت ، وذهبت لتعيش مع أبويها في بو حيث كاد تبذيرها في الإنفاق على الثياب والبطانة وإسرافها في التبرعات يؤدي بها إلى الخراب . وكانت مرجريت نفسها المثال المجسم للإحسان . وكانت تسير دون أن يرافقها حارس في شوارع بو « مثل أى فتاة بسيطة » ، وتسمح لكل من يريد بمقابلتها ، وتستمع مباشرة إلى أشجان شعبها وقالت : « ينبغي ألا ينصرف أحد حزيناً أو مغموماً من حضرة أمير ، لأن الملوك هم رعاة الفقراء . . . والفقراء عيال الله » (١٩) . وأطلقت على نفسها لقب « رئيس

وزراء الفقراء » وكانت تزورهم في دورهم وتبعث إليهم بالأطباء من حاشيتها ، وشارك هنرى تماما في هذا لأنه كان حاكما ممتازاً ، بقدر ما كان زوجا مقصراً ، وكانت الأشغال العامة التي أدارها تصلح أنموذجا لفرنسا ، فقد مول هو ومرجريت تعليم عدد كبير من الطلبة الفقراء من بينهم أميو الذى ترجم فيما بعد كتاب بلوتارخ ، وقدمت مرجريت المأوى والأمان لمارو ورابليه وديبريه وليفيفر دينابل وكالفن ولكثيرين غيرهم ، إلى حد أن أحد من أسبغت عليهم حمايتها قارنها به « دجاجة تتعهد أفراخها بعناية وترفف عليهم بجناحها(٢٠) » .

وإلى جانب ما كانت تقوم به من أعمال البر كانت تهتم بثلاثة أمور غلبت على حياتها فى نيراك وبووهى : الأدب والحب الأفلاطونى واللاهوت الصوفى الذى وجد متسعاً للكاثوليكية والبروتستانتية على السواء ، وتسامح حتى مع الفكر الحر . وكان من عاداتها أن تدعو الشعراء ليقروا عليها أشعارهم وهى تتلهى بالتطريز ، وكانت تنظم أشعاراً تستحق بعض التقدير ، يمتزج فيها الحب البشرى بالحب الإلهى فى وجد واحد مبهم . ونشرت إبان حياتها عدة مجلدات فى الشعر والدراما ، ليست فى جودة رسائلها التى لم تطبع إلا عام ١٨٤١ . ويعرف العالم بأسره كتابها الأيام السبعة ، بسبب ما اشتهر به من حكايات بديئة . ولكن أنصار الأدب المكشوف سوف يخيب ظنهم فيها . فهذه الحكايات رويت بأسلوب العصر ، الذى وجد أعظم فكاكه فى الخدع والأعمال ، التى تتسم بالشذوذ وتقلبات الحب ، وانحرافات الرهبان عن عهودهم ، والحكايات نفسها تروى بتحفظ . وهذه الحكايات هى التى رواها الرجال والنساء من حاشية مرجريت ، أو من حاشية فرانسيس ، وقد دونتها بنفسها أو دونت لها (١٥٤٤ - ٤٨) ، ولكنها لم تنشرها قط . وظهرت مطبوعة بعد وفاتها بعشر سنوات . وكانت تعزم أن تؤلف بها مجموعة قصص أخرى على غرار « الأيام العشرة » ، ولكن لما كان الكتاب قد توقف

في اليوم السابع من رواية الحكايات ، فإن الناشر أطلق عليه اسم الأيام السبعة ، ويبدو أن كثيراً من القصص الواردة فيه واقعية ، أخفيت شخصياتها بتغيير أسمائهم ، ويقول لنا برانتوم إن أمه ، وكانت إحدى رواة القصص ، تعرف حقيقة الأشخاص الذين تخفوا بأسماء مستعارة في الحكايات ، ويؤكد لنا مثلاً أن الحكاية الرابعة من اليوم الخامس هي قصة محاولات بونيفيه مع مرجريت نفسها (٢١) .

ويجب التسليم بأن ذوق عصرنا ، المعترف به ، سوف يكره على الإحساس بالحجل أمام قصص الإغراء التي رواها السادة والسيدات من الفرنسيين ، الذين كانوا يتلهون ويقضون أيامهم في التلهي انتظاراً لفيضان يهبط عليهم ويسمح لهم بالعودة من حمامات كوتيريه ، وتثير بعض الملاحظات العارضة الذعر : « أتريد إذن أن تقول إن كل شيء مباح لمن يعشقون بشرط ألا يعرف أحد ؟

أجل ، في الحقيقة ، إن الأغبياء فقط هم الذين يكتشف أمرهم (٢٢) . وإن الفلسفة العامة للكتاب لتجد ما يعبر عنها في جملة لها مغزاها ، وردت في الحكاية الخامسة : « ما أنعمت السيدة التي لا تحرص على الحفاظ على كنزها ، الذي يمنحها الحفاظ للتام عليه الكثير من الشرف ، والذي يجلبها بالكثير من العار إن ظلت حريصة عليه (٢٣) .

ويتخلل الحكايات كثير من العبارات الساخرة المرحة تشيع فيها البهجة ، من ذلك أننا نسمع عن صيدلي ورع من بو « لم يكن له شأن مع زوجته إلا في أسبوع الآلام على سبيل التفكير » (٢٤) وكما هو الحال في كتاب بوكاشيو فإن نصف ما في كتابها من فكاهة يعتمد على هو الرهبان . وتقول شخصية في الحكاية الخامسة : « إن هؤلاء الآباء الصالحين يعظوننا بالتزام العفة وهم يريدون أن يدينسوا شرف زوجاتنا » . ويوافق على هذا زوج

انتبهك شرفه ويقول : « إنهم لا يتجاسرون على لمس المال ولكنهم على استعداد لأن يمسكوا بأفخاذ النساء وهي أخطر بكثير » . ولا بد أن يضاف إلى هذا كله أن رواة الحكايات المرحة يستمعون إلى القديس كل صباح ويظهرون كل صفحة يقلبونها بعد ذلك بأناشيد التقوى .

والقول بأن مرجريت قد استمتعت بهذه الحكايات أو جمعتها يشير إلى مزاج العصر ، ويدفعنا إلى الحذر من تصويرها قديسة ، وأنها ظلت كذلك حتى سنوات ذبولها ، ومع ما يبدو من أنها هي بالذات كانت مثابرة على أن تحتفظ بطهارتها ، إلا أنها كانت تبيع لغيرها الانحلال ، ولم تكن تبدى اعتراضات مدونة على توزيع الملك لسلطاته واستمرت بينها وبين عشيقاته للواحدة إثر الأخرى ، علاقة صداقة حميمة ، والظاهر أن الرجال ومعظم النساء كانوا يفكرون في تبادل الحب بين الجنسين بألفاظ جنسية لا تعرف الاحتشام . وشاعت بين الفرنسيات عادة جذابة إبان ذلك العهد الطروب ، هي تقديم هدايا من أربطة سيقانهم لرجال لا وجود لهم إلا في الخيال (٢٥) . وكانت مرجريت ترى أن الرغبة الجسدية من الأمور التي يمكن أن يترخص فيها ، إلا أنها هي نفسها أفسحت في قلبها مجالاً للحب الأفلاطوني والديني . وقد انتقلت عبادة الحب الأفلاطوني بين « نوادي الحب » في القرون الوسطى ، وتدعمت بأناشيد إيطالية مثل أنشودة بمبو في نهاية قصة « رجل البلاط » . وشعرت مرجريت بأن من الخير أن تقبل النساء ، بالإضافة إلى العاطفة الجنسية المعتادة ، ولاء رجال لا ينالون من الجزاء إلا صداقة دقيقة وبعض صلات الود التي لا ضرر منها ، وأن هذا الارتباط قيم بترويض الحساسية الجمالية في الذكر وتهذيب سلوكه ، وتعليمه الالتزام بقواعد الأخلاق ، ومن ثم فإن المرأة تقوم بتهذيب الرجل . ولكن كان في فلسفة مرجريت حب أرفع من الحب الجلسي أو الأفلاطوني هو حب الخير أو الجمال أو أى كمال ، ومن ثم كان فوقها جميعاً حب الله . ولكن لكي يحب المرء الله لا بد

له اولاد من أن يحب مخلوقاً بشرياً حباً تاماً (٢٦) ، وكانت عقيدتها الدينية معقدة ومبيلة مثل مفهومها عن الحب ، وكما أن ألانية أخيها لم تكدر ولاءها له فإن ما تعرضت له حياتها من مآسٍ وأحداث قاسية تركت عقيدتها الدينية خالصة متحمسة وغير محافظة على أية حال ، وكانت تمر بها لحظات يراودها فيها الشك ، فقد اعترفت في كتاب : « مرآة الروح الخاطئة » بأنها قد شككت في بعض الأوقات في الكتاب المقدس وفي الرب على السواء ، واتهمت الرب بالقسوة ، وتساءلت هل هو حقاً الذي أنزل الكتاب المقدس؟ (٢٧) . وفي عام ١٥٣٣ استدعتها السوربون لتجيب على اتهام بالهرطقة ، فتجاهلت الاستدعاء ، وقال راهب لجمهور أبريشيته إنها تستحق أن توضع في جوال ويخاط عليها وتلقى في نهر السين (٢٨) ، ولكن الملك أبلغ السوريون والرهبان بأن يتركوا شقيقته وشأنها ، ولم يصدق ما وجه إليها من اتهام وقال : « إنها تحبني كثيراً إلى حد أنها لا تؤمن إلا بما أومن به (٢٩) » . وكانت سعادته بالغة وثقته بنفسه لا حد لها إلى درجة جعلته يحلم بأنه من الهوجنوت . ولكن مرجريت استطاعت أن تفعل ذلك ، وكان لديها إحساس بالإثم ، وصنعت من هفواتها قنن جبال . وكانت تحتقر الهيئات الدينية وترى أنها تافهة لا جدوى منها . ولا هم لها إلا الإسراف في ارتكاب الخطايا ، وشعرت بأن الإصلاح قد فات أوانه من عهد طويل ، وقرأت طرفاً من الأدب اللوثرى واستحسنت هجماته على فجور رجال الدين وجشعهم ، ودهش فرانسيس عندما وجدها تصلي يوماً مع فرويل (٣٠) - وهو يوحنا المعمدان - عند كالفن . وبينما كانت لا تنقطع عن الصلاة للعدراء في نيراك وبو في ورع الواثق بنفسه ، فإنها أسبغت حمايتها على اللاجئيين من البروتستانت ومنهم كالفن نفسه . ومهما يكن من شيء فإن كالفن ساءه كثيراً أن يجد في بلاطها مفكرين أحراراً مثل إتيين دوليه ، بونافنتير ديبيرييه وعنفها على تساهلها ولكنها استمرت فيه . ولكم كان يسرها لو أنها صاغت مرسوم

نانت لحفيدها ؛ ولقد اجتمعت في مرجريت في لحظة من اللحظات خصائص عصر النهضة وعهد الإصلاح الديني (٣١) .

وانتشر تأثيرها في فرنسا وكانت كل نفس حرة تتطلع إليها باعتبارها حامية لها ومثالاً للحرية . وقد أخذى إليها رابليه كتابه *Gargantua* . وكان رونسار ويواقيم دي بلاي يحدوان حدوها بين آن وآخر في صوفيتها الأفلاطونية والأفلوطينية . وإن ترجمات مارو للمزامير لتفوح منها أنفاس روحها نصف الهيجونوتية . وترنم بايل في القرن الثامن عشر بنشيد لها في معجمه ؛ وفي القرن التاسع عشر قدم لها ميشليه البروتستانتى في المحفوظة الشعرية المطولة الرائعة التي لا يمل الناس سماعها والمسماة « تاريخ فرنسا » ما يعبر عن شكره بقوله : « فلنتذكر دائماً ملائكة نافار الرقيقة ، هذه الملكة التي وجد قومنا الهاربون من السجن أو المحرقة في أحضانها الأمان والاحترام والصدقة . إننا نعبر عن شكرنا لك أيتها الأم الحبيبة انفضتينا . لقد كان بيتك دار قديسينا وكان قلبك عشاً لحريرتنا (٣٢) » .

٤ - الفرنسيون البروتستانت

لم يحاول أحد البحث في أن الحاجة ماسة لإصلاح ديني ، وظهر هنا رجل الدين الصالح والشرير كما ظهر في أي مكان آخر : قساوسة مخلصون ورهبان متبتلون وراهبات قديسات . وظهر هنا وهناك أسقف نذر نفسه للدين أكثر مما نذرهما للسياسة ، وقساوسة جهلة أو خائرو العزيمة . ورهبان كسالى وفاسقون ورهبان ينبشون عن المال ويتظاهرون بالفقر . وأخوات ضعيفات في الأديان وأساقفة يوثرون عرض الدنيا ويعرضون عن ثواب الآخرة . وبينما ارتفع شأن التعلم هوى الإيمان ، وبينما كان لرجال الدين النصيب الأكبر في التعليم فإنهم أظهروا بسلوكلهم أنهم لم يعودوا يتأثرون بفلسفة الحشر والنشر المروعة ، التي أماتها عليهم يوماً عقيدتهم الرسمية . وخص بعض

الأساقفة أنفسهم بعدد وافر من المناصب والكرامى الأسقفية ، وعلى هذا احتفظ جين دى لورين وتمتع بإيرادات من أسقفيات منز ونول وفردان وأبرشيات ريمس وليون وناربون وألبى وماكون وآجن ونانت وأديار جورز وفيكامب وكلوتى ومارموتين وسالنا - أورين وسان ده لاون وسان جرميه وسان مدار ده سواسون وسان - مانس دى تول (٣٣) . ولم تكف هذه لتلبية احتياجاته وشكا من الفقر (٣٤) . وندد الرهبان بتكالب الأساقفة على عرض الدنيا ، وندد القساوسة بالرهبان ، ويستشهد برانتوم بعبارة شاعت فى فرنسا وقتذاك وهى : « إنه شحيح أو فاسق كأنه قسيس وراهب (٣٥) » . وأول جملة فى الأيام السبعة تصف أسقف سيس بأنه يتلهف على إغراء امرأة متزوجة . وهناك اثنتا عشرة قصة فى الكتاب تروى بالتفصيل الأعمال المماثلة لرهبان مختلفين ، وتقول إحدى الشخصيات : « عندما تقع عيناي على راهب يتماكنى رعب شديد ، إلى حد أنى لا أستطيع حتى أن اعترف لهم ، لأنى أعتقد أنهم أسوأ من كل الرجال الآخرين (٣٦) » . وتسلم وازيل - وهو الاسم الذى أطلقته مرجريت على أمها فى الأيام السبعة - بأن بينهم رجلا صالحين ولكن هذه السيدة نفسها لوزير أميرة سافوى كتبت فى يومياتها تقول : « فى عام ١٥٢٢ . . . بدأنا أنا وابنى ، بنعمة الروح القدس نعرف المنافقين ، الأبيض والأسود والأشهب والقاتم . ومن كل الألوان أولئك الذين يحفظنا الرب برحمته الواسعة منهم ويدفع عنا أذاهم ، لأنه إذا لم يكن المسيح كاذبا فليس بين كل أبناء البشرية جيل أخطر منهم (٣٧) » .

ومع ذلك فإن جشع لوزير وتعدد نساء ابنها وأخلاق حاشيتها النزاعة إلى الفوضوية لم تكن نموذجاً يحتذى به رجال الدين الذين كانوا خاضعين للملك إلى حد كبير . وفى عام ١٥١٦ حصل فرانسيس من ليو العاشر على اتفاقية بابوية تخوله الحق فى تعيين أساقفة فرنسا ورهبانها ، ولكنه لما أسرف

في هذا التعيين الذي لجأ إليه لمكافحة من أدوا له خدمات سياسية ، تأكدت الصفة الدنيوية للأسقفية . ونصت الاتفاقية البابوية السارية المفعول على أن تكون الكنيسة الجاليقية مستقلة عن البابوية وتابعة للدولة . وهذه الوسيلة حقق فرانسيس قبل أن ينشر لوثر رسائله بعام ، في الواقع ، وإن لم يبد ذلك لحسن الحظ في الشكل ، ما كان قميناً بأن يكسبه الأمراء الألمان وهنرى الثامن بالحرب أو الثورة ألا وهو تأمين المسيحية . وماذا كان في وسع الفرنسيين البروتستانت أن يقدموه لملك فرنسا أكثر من هذا ؟

لقد سبق أولهم لوثر . ففي عام ١٥١٢ قام جاك ليفيفر ، المولود في أتابل في بيكاردي والذي قام بالتدريس في جامعة باريس بعد ذلك ، بنشر ترجمة لاتينية لرسائل بولس مع شرح يفسر ، بين هرطقات أخرى ، اثنتين منها ، كانتا حربيتين بأن تكونا بعد عشر سنوات متفقتين في الأساس مع لوثر وهما : « إن الناس يمكنهم أن يظفروا بالخلاص لا بالأعمال الصالحة ، ولكن بالإيمان برحمة الله التي بناؤها بتضحية المسيح للتكفير عن خطايا البشر ، وإن المسيح موجود في القربان المقدس بفعله وإرادته الطيبة ، لا بأى تجسيد كهنوتي للخبز والنبيذ . وطالب ليفيفر مثل لوثر بالعودة إلى الإنجيل ، وسعى مثل أرازموس إلى استعادة النص الصحيح للعهد الجديد ، وتوضيحه كوسيلة لتطهير المسيحية من أساطير القرون الوسطى والزيادات الكهنوتية . وأصدر عام ١٥٢٣ ترجمة فرنسية للتوراة وللمزامير بعد ذلك بعام . وقال في إحدى تعليقاته : « ما أشد خزينا عندما نرى أسقفاً يطلب من الناس في إلحاح أن يشربوا معه ، لا هم له إلا المقامرة . . . والصيد باستمرار . . . والتردد على البيوت سيئة السمعة (٣٨) » وأدانته السربون وقضت بأنه هرطيق ففر إلى شتراسبورج (١٥٢٥) ، وتشفعت له مرجريت فاستدعاه فرانسيس وعينه أميناً للمكتبة الملكية في بلاوا ومربياً لأطفاله . وفي عام ١٥٣١ عندما أغضبت أعمال البروتستانت التي تجاوزوا

فيها الحد الملك ، لجأ ليفيفر إلى مرجريت في جنوبي فرنسا وعاش هناك حتى وفاته بالغاً من العمر سبعة وثمانين عاماً (١٥٣٧) .

وشرع تلميذه جيوم بريسونيه الذي عين أسقفاً لمو (١٥١٦) في إصلاح الأسقفية بروح أستاذه ، وبعد أربع سنوات من العمل الحماسي شعر بأنه من القوة بحيث يستطيع أن يقدم على ابتداع تغييرات لاهوتية . فعين للإشراف على الصدقات مصاحبين معروفين من أمثال ليفيفر وفاريل ولوى ده بركان وجيرار روسل وفرانسوا فاتابل وشجعهم على أن ينادوا في عظاتهم بـ « العودة إلى الإنجيل » . وأثنت عليه مرجريت وعينته موجهة روحياً لها . ولكن عندما أعلنت السوربون مدرسة اللاهوت التي تسيطر الآن على جامعة باريس - أدانتها للوثر (١٥٢١) أمر بريسوفيه زملاءه بمسألة الكنيسة فقد كانت وحدة الكنيسة في نظره ، مثله في هذا مثل أرازموس ومرجريت ، أهم من الإصلاح .

ولم تستطع السوربون أن توقف تدفق الأفكار اللوثرية عبر نهر الراين ، فقد كان الطلبة والتجار يجلبون مؤلفات لوثر من ألمانيا باعتبار أنها تمثل أعظم الأخبار إثارة وقتذاك ، وأرسل فروبن نسخاً من بازيل لتباع في فرنسا . وتلقف العمال الساخظون العهد الجديد واعتبروه وثيقة ثورية واستمعوا بابتهاج إلى مبشرين استخلصوا من الإنجيل مدينة فاضلة تتحقق فيها المساواة الاجتماعية .

وعندما نشر الأسقف بريسونيه عام ١٥٢٣ على أبواب كاتدرائيته كتاباً للبايا عن صكوك الغفران مزقه جان لكبير ، وكان يعمل في تمشيط الصوف في مو ووضع مكاتها إعلاناً ملصوقاً يصف البابا بأنه مناهض للمسيحية ، فقبض عليه ، ووسم بالنار على جبهته (١٥٢٥) بناء على أمر المجلس النيابي لباريس . فانتقل إلى ميتر وهناك حطم التماثيل الدينية ، التي كان من المقرر

أن يمر أمامها موكب لتقديم البخور . وقطعت يده اليمنى واجتث أنفه ، وانتزعت حلمتها ثدييه بملقط ، وربط رأسه بشريط من الحديد المحمى إلى درجة الأحمرار . وأحرق حياً (١٥٢٦) (٢٩) . وأرسل عدد كبير من المتطرفين الآخرين إلى المحرقة في باريس بتهمة « التجديف » أو لإنكارهم ما للعنراء والقديسين من تفويض في الشفاعة (١٥٢٦ - ٢٧) .

وكان شعب فرنسا يؤيد بوجه عام عمليات الإعدام هذه (٤٠) وكان يحب عقيدته الدينية ويرى أنها وحى من لدن الله ومن قوله ، ويمقت الهراطقة لأنهم يسلبون من الفقراء أعظم عزاء عندهم ولم يظهر في فرنسا رجل مثل لوثر . يثير الطبقة الوسطى ضد طغيان البابا ، فقد كانت الاتفاقية البابوية تمنع استنائة مثل هذه ولم يكن كالفن قد وصل بعد إلى الشهرة الجنيضية التي تتيح له أن يبعث بدعوته الصارمة للإصلاح . ووجد الثائرون بعض التأييد بين طبقة الأرسقراطية بيد أن السادة والسيدات كانوا قليلي الاهتمام إلى درجة أنهم لم يتشبهوا بالأفكار الجديدة إلى الحد الذي ينحل بعقيدة الشعب أو يقض مضاجع الحاشية ، وقد تسامح فرانسيس نفسه مع الدعاية اللوثرية ما دامت غير منظوبة على أى تهديد بقيام فتنة اجتماعية أو سياسية ، وكانت له بدوره شكوكه الخاصة - في سلطات البابا وبيع صكوك الغفران ووجود المطهر (٤١) ، ولعله رأى أن يستخدم تسامحه مع البروتستانتية سلاحاً يشهره ضد بابا يميل كثيراً إلى الانحياز لشارل الخامس . وكان يعجب بارازموس وسعى إليه لتعيينه في الكلية الملكية الجديدة ، وكان يؤمن معه بتشجيع التعليم والإصلاح الكهنوتي - ولكن بخطوات لا تقسم للشعب إلى نصفين متحاربين أو تضعف تأثير الخدمات التي تقدمها الكنيسة لتهديب أخلاق الأفراد والنظام الاجتماعي (٤٢) . وكتبت مرجريت إلى بريسونيه عام ١٥٢١ تقول : « إن الملك والسيدة (لويز أميرة سافوى) على أهبة الآن أكثر من أى وقت مضى لإصلاح الكنيسة (٤٣) » ، وعندما قبضت

السوربون على لوى ده بركان لقيامه بترجمة بعض مصنفات لوثر (١٥٢٣)
أطلق سراحه بفضل تشفع مرجويت له عند الملك . ولكن فرانسيس أفرعته
ثورة الفلاحين في ألمانيا التي يبدو أنها نشبت نتيجة الدعاية البرتستانتية ،
وقبل أن يرحل ليلتي الهزيمة في بافيا أمر الأساقفة بسحق الحركة اللوثرية
في فرنسا .

وبينما كان الملك أسيراً في مدريد ، سجن بركان مرة أخرى ولكن
مرجريت حصلت ثانية على أمر بإطلاق سراحه . وعندما فك إيسار فرانسيس
نفسه انهمك في يوبيل للتحرر ، ولعله فعل هذا إقراراً بفضل شقيقته التي
سعت كثيراً ، لتحريره ، فاستدعى ليفيفر وروسيل من المنفى وشعرت
مرجريت بأن الحركة من أجل الإصلاح الديني قد ظفرت بيومها الموعود .

ووقع حادثان دفعا الملك إلى العودة لعقيدة المحافظين . فقد كان في
حاجة للمال لافتداء ولديه اللذين كان قد سلمهما لشارل مقابل حصوله
على حريته . ووافق رجال الدين على منحه ١٣٠٠٠٠٠ جنيه ولكنهم
أرفقوا بالمنحة التماساً بوقفه أكثر حزماً مع الهرطقة ، فوافق (١٦ ديسمبر
سنة ١٥٢٧) ، وفي يوم ٣١ مايو سنة ١٥٢٨ هاله أن يعلم بتحطيم رأس
العذراء والابن في تمثال لها خارج كنيسة في أبرشية سان جرمان أثناء الليل .
وصاح الناس يطالبون بالانتقام ، وعرض فرانسيس ألف كراون مكافأة
لمن يعثر على المخربين وقاد موكباً حزيناً من الأساقفة وموظفي الدولة والنبل
وعامة الناس لترميم التمثال المحطم برأسين من الفضة . وانتهزت السوربون
فرصة رد الفعل لسجن بركان مرة أخرى وبينما كان فرانسيس غائباً في بلوا
ودفع باللوثرى الذي رفض التوبة إلى المحرقة (١٧ إبريل عام ١٥٢٩)
وسط فرحة الحاضرين من الجمهور (٤٤) .

وكان مزاج الملك يتغير تبعاً لتغيرات دبلوماسيته ، ففي عام ١٥٣٢ ،
وقد أغضبه تعاون كليمنت السابع مع شارل الخامس قدم عروضاً للأمراء

اللوثريين الألمان وأذن لمرجريت بتنصيب روسل مبشراً للجماهير كبيرة في اللوفر ، وعندما احتجت السوربون نفى زعماءها من باريس .

وفي أكتوبر سنة ١٥٣٣ كان علي وفاق مع كليمنت ، فوعد باتخاذ إجراءات فعالة ضد الفرنسيين البروتستانت . وفي أول نوفمبر ألقى نيكولاس كوب خطابه في الجامعة ، فاستشاطت السوربون غضباً وأمر فرانسيس باضطهاد جديد . ولكن اشتدت وقتذاك حدة نزاعه مع الإمبراطور فأرسل جيوم دي بلاي المناصر للإصلاح إلى فيتنبرج ليطلب من ملانكتون أن يتوصل لصيغة توفيق بين العقيدة القديمة والأفكار الجديدة (١٥٣٤) وبهذا يجعل في الإمكان عقد تحالف بين ألمانيا البروتستانتية وفرنسا الكاثوليكية . فأذعن ملانكتون وأخذت الأمور تتحرك بسرعة عندما قامت جماعة متطرفة من المصلحين الفرنسيين بلصق إعلانات في شوارع باريس وأورليان وغيرهما من المدن ، بل وحتى على أبواب مخرج الملك في أمبواز تندد بالقداس وتصفه بأنه من قبيل عبادة الأوثان وباللبابا ورجال الدين الكاثوليك ، وتصفهم بأنهم « ذرية دودة . . . مارقون ، ذئاب . . . كذابون ، كافرون ومزهقون للأرواح » (١٨ أكتوبر سنة ١٥٣٤) (٤٥) . فاستشاط فرانسيس غضباً وأمر بسجن جميع المشتبه فيهم بدون تمييز وامتألت السجون . وقبض على عدد كبير من الطابعين ، وظلت الطباعة قاطبة محظورة لفترة ما . وانضمت مرجريت ومارو وكثير من البروتستانت المعتدلين إلى من استنكروا الإعلانات المالصقة . وسار الملك وأولاده والسفراء والنبلاء ورجال الدين في صمت مهيب ، يحملون شموعاً موقدة ليستمعوا إلى قداس أقيم للتكفير في كاتدرائية نوتردام (٢١ يناير سنة ١٥٢٥) . وأعلن فرانسيس أنه سيقطع رأس أولاده إذا اكتشف أنهم يطوون جوائنهم على مثل هذه الهرطقات الخارجة على الدين . وفي عشية تلك الليلة أحرق ستة من البروتستانت حتى الموت في باريس بطريقة رثى

أنها تصلح لتهدئة المعبود . فقد علقوا فوق نار وكانوا يدلون إليها ويرفعون منها مراراً وتكراراً وذلك لإطالة أمد عذابهم (٤٦) . وأحرق في باريس أربعة وعشرون من البروتستانت وهم أحياء من العاشر من نوفمبر عام ١٥٣٤ والخامس من مايو عام ١٥٢٥ . وزجر البابا بول الثالث الملك لهذه القسوة التي لا داعي لها وأمره بوقف الاضطهاد (٤٧) .

وقبل أن ينصرم العام كان فرانسيس يخطب ود البروتستانت الألمان من جديد . وكتب بنفسه إلى ملانكتون (٢٣ يوليو سنة ١٥٣٥) يدعو إلى الحضور « والتباحث مع بعض المبرزين من الدكاترة عندنا عن الوسيلة لإعادة توطيد دهرهم ذلك التناشق السامى فى الكنيسة ، الذى أرى أنه أضر أمنية لدى على الإطلاق (٤٨) » . ولم يحضر ملانكتون ولعله ارتاب فى أن فرانسيس يستخذه شوكة فى جنب الإمبراطور ، وربما أثناه عن عزمه لوثر أو أمير ساكسونيا المختار الذى قال : « إن الفرنسيين ليسوا من الإنجلييين بل هم إرازميون (٤٩) » . وكان هذا صحيحاً بالنسبة لمرجريت وهريسونيه ليفيفر وروسيل ، ولم يكن صحيحاً بالنسبة لأنصار لصق الإعلانات والهوجينوت الكالفينيين الذين بدأوا يتكاثرون فى جنوب فرنسا . وتغلى فرانسيس عن كل جهوده لاسترضاء البروتستانت بعد مسألة شارل (١٥٣٨) .

ولم يكن أعظم خذى لحق بعهدته إلا نتيجة خطئه إلى حد ما فقد سمح للفوديين أو الولدانيين ، الذين كانوا لا يزالون يحبون الآراء شبه البروتستانتية لبيتر والد ومؤسس طائفتهم فى القرن الثانى عشر ، بالاحتفاظ بوجودهم الذى يشبه نظام طائفة الكويكر ، فى ظل الحماية الماسكية ، فى نحو ثلاثين قرية على امتداد نهر دورانس فى بروفانس : وفى عام ١٥٣٠ شرعوا فى مكاتبة المصلحين فى ألمانيا وسويسرة ، وبعد عامين استخلصوا اعترافاً بهقىة تقوم على آراء بوسر وأويكولا مبادريوس ، وعقد قاصد رسولى

بينهم محكمة للتفتيش فاستغاثوا بفرانسييس ، فأمر بوقف الاضطهاد
(١٥٣٣) : ولكن الكرد ينال ده تورنون ادعى أن الولدانين كانوا يدبرون
مؤامرة تنطوي على خيانة للحكومة ، وأقنع الملك للعليل المتذبذب بتوقيع
مرسوم (أول يناير سنة ١٥٤٥) ينص على أن كل الولدانين الذين يكتشف
أنهم مذنبون وتثبت عليهم تهمة الهرطقة يجب أن يعذبوا . وفسر موظفو
المجلس النيابي في إكس - ان - بروفانس - الأمر بأنه يعنى الإبادة
الجماعية . وأبى الجنود في مبدأ الأمر إطاعة الأمر وعلى أية حال فإنهم
حملوا على قتل فئة قليلة ثم ألهبتهم حرارة القتل فحولوه إلى مذبح . وفي
خلال أسبوع واحد (١٢ - ١٨ أبريل) أحرقت بضع قرى حتى سويت
بالأرض ، وفي إحداها ذبح ٨٠٠ رجل وامرأة وطفل ، وفي مدى شهرين
أزهقت أرواح ٣٠٠٠ نفس ، وهدمت اثنتان وعشرون قرية ، وأكره ٧٠٠
رجل على العمل في السفن . ولقيت خمس وعشرون امرأة مذعورة لجأن
إلى كهف حتفهن خنقاً بنار أشعلت عند مدخله . ورفعت سويسرة وألمانيا
البروتستانتيتان احتجاجات مروعة وبعثت أسبانيا بالتهاني إلى فرانسييس (٥٠)
وبعد عام اكتشفت جماعة لوثرية صغيرة مجتمعة في سو برتاسة ببيير لكبير
شقيق جين الذي وسم بالنار وعذب أربعة عشر من الجماعة وأحرقوا كما
أحرق ثمانية منهم بعد أن انتزعت ألسنتهم (٧ أكتوبر سنة ١٥٤٦) .

وكانت هذه الاضطهادات أعظم فشل منى به عهد فرانسييس . وأضفت
شجاعة الشهداء جلالاً وروعة على قضيتهم ، ولا بد أن ألوا من المشاهدين
قد تأثروا وانزعجوا ، ولولا عمليات الإعدام المشهودة هذه لما كلفوا أنفسهم
قط عناء تغيير عقيدتهم الموروثة ، وعلى الرغم من الإرهاب المتكرر فإن
« حشودا » سريعة من البروتستانت وجدت عام ١٥٣٠ في ليون وبوردو
وأورليان وريمس وأميان وبواتييه وبورج ونيم ، ولا روشيل وشالون
ودييجون وتولوز . وكان الأرض قد انشقت عن فرق من الهوجينوت :

ولا بد أن فرانسيس قد عرف وهو على فراش الموت أنه قد ترك ابنه تمدق به العداوة من إنجلترا وألمانيا وسويسرة ولم يكن يواجه هذا فحسب بل يواجه أيضاً إرثاً من الكراهية في فرنسا نفسها .

٥ - هابسبورج وقالوا ١٥١٥ - ٢٦

لم يكن من المتوقع أن يرضى ملك متقلب مثل هذا بالتخلي عن كل الآمال التي كانت قد أثارت أسلافه إلى ضم ميلان ، ونابلي إذا أمكن ، ليكونا درتين في التاج الفرنسي . وقد قبل لويس الثاني عشر الحدود الطبيعية لفرنسا - أي أنه اعترف للألب بالسيادة . وسحب فرانسيس الاعتراف وتحدى حق الدوق مكسميليان سفورزا في ميلان . وفي غضون المفاوضات التي دارت بينهما بضعة شهور حشد قوة هائلة وجيهاها ، وفي أغسطس عام ١٥١٥ سار على رأسها وسلك طريقاً جديداً محفوفاً بالمخاطر - واقتحم طريقه عبر جبال صخرية - فوق الألب وانحدر منها إلى إيطاليا - والتقى الفرسان والمشاة الفرنسيون في مارينيانو على مسيرة تسعة أميال من ميلان ، بجنود سفورزا من السويسريين المرتزقة ، واستمر بينهما القتال يومين (١٣ - ١٤ سبتمبر سنة ١٥١٥) حدثت فيهما مقتلة كبيرة لم تعرفها إيطاليا منذ الغزوات البربرية ، وتركت جثث ١٠,٠٠٠ رجل مطروحة على الأرض . وخيل في فترة ما أن الفرنسيين قد هزموا وعندئذ اندفع الملك إلى الأمام وهاجم ونظم صفوف جنده وجعل من نفسه مثالا للجرأة . وجرى العرف أن يكافئ الحاكم المنتصر من يظهرون شجاعة خاصة بتنصيب طبقة جديدة من الفرسان في الميدان ، ولكن فرانسيس قبل أن يفعل هذا أقدم على حركة لها مغزاها لم يسبقه إليها أحد . فقد ركع أمام بيار ، سنيور دي بايار ، وطلب تنصيبه فارساً على يد الفارس المشهور ، الذي لم يتطرق إليه الخوف ، ولم يوجه إليه اللوم ، فاحتج بايار بأن الملك ، بحكم

وظيفته ، فارس الفرسان ، ولا حاجة به إلى تشریف إلا أن الملك الشاب ، كان لا يزال في الحادية والعشرين من عمره ، أصر على ذلك ومضى بإبار يقوم بالمراسم التقليدية بجلال ، ثم طرح سيفه وهو يهتف « لا شك يا سيدي العزيز أنك سوف تحفظ كأي أثر ، وتنال من التشریف فوق ما تناله السيوف الأخرى جميعاً ، لأنك في هذا اليوم أضفيت على ملك وسيم قوى صفة الفروسية ، وإني لن أحملك قط بعد ذلك إلا لمحاربة الأتراك والمغاربة والعرب (٥١) » . ودخل فرانسيس ميلان بصفته صاحبها وبعث بدوقها المعزول إلى فرنسا ، وخصص له مرتباً مجزياً ، واستولى أيضاً على بارما وبياتشزا ووقع مع ليو العاشر ، في احتفالات رائعة في بولونيا ، معاهدة واتفاقية يخولان البابا والملك على السواء أن يدعيا الحصول على نصر دبلوماسي .

وعاد فرانسيس إلى فرنسا معبوداً لمواطنيه بل ولأوروبا تقريباً ، فقد سحر جنوده بمشاطرته إياهم ما لا قوه من مشاق وتفوقه عليهم في الشجاعة ، وعلى الرغم من أنه في غمرات انتصاره قد انغمس في التيه بنفسه ، فإنه خفف من غلوائه ، بالثقة بآخرين وتلطيف حدة كل أنانية بكلمات الشاء والتمجيد . وارتكب وهو ثمل بالشهرة أكبر خطأ في حياته . ذلك أنه رشح نفسه للتاج الإمبراطوري . وانزعج ، وهو على حق ، باحتمال أن يصبح شارل الأول ، ملك أسبانيا ونابلي وكونت الفلاندرز وهولنده على رأس الإمبراطورية الرومانية المقدسة - بكل تلك المطالب في لومباردي ومن ثم ميلان ، التي غزا مكسمليان من أجلها إيطاليا مراراً ، وسوف تكون فرنسا ، في نطاق إمبراطورية جديدة مثل هذه ، محاطة بأعداء لا يقهرون في الظاهر .

وقدم فرانسيس الرشا ، وخسر أمام شارل الذي قدم من الرشا أكثر منه وفاز (١٥١٩) ، وبدأت المنافسة المريرة التي جعلت غربي أوروبا يعج بالاضطرابات إلى ما قبل وفاة الملك بثلاث سنوات .

ولم يعد شارل وفرانسيس من الأسباب ما يدعو إلى تبادل العداء ، فقد زعم شارل ، حتى قبل أن يصبح إمبراطوراً أن له الحق في أن يطالب ببورغنديا لأنه حفيد ماري ابنة شارل الجسور ، وأبي أن يعترف باتحاد بورغنديا مع التاج الفرنسي . وكانت ميلان من الوجهة الرسمية إقطاعية في الإمبراطورية ، واستمر شارل في فرض الاحتلال الإسباني لنافار ، وأصر فرانسيس على أن تعود إلى هنري دلبريه . وطرح بواعث الحرب هذا السؤال العويص : من هو سيد أوروبا : شارل أم فرانسيس ؟ وأجاب الأتراك بل سايمان .

ووجه فرانسيس الضربة الأولى ، فعندما لاحظ أن شارل مشغول بثورة سياسية في أسبانيا وثورة دينية في ألمانيا أرسل جيشاً عبر جبال البرانس للاستيلاء على نافار من جديد ، فهزم في حملة أهم حادث فيها هو إصابة أجناسيوس لويولا بجرح (١٥٢١) . وانطلق جيش آخر جنوباً للدفاع عن ميلان ، وتمرد الجند بسبب عدم دفع المرتبات ، وهزمتهم الجنود الإمبراطورية المرتزقة هزيمة منكرة في لابيوكوكا ، وسارعت ميلان لترتمي في أحضان شارل الخامس (١٥٢٢) وانطلق قائد الجيوش الفرنسية لمقابلة الإمبراطور لكي يتغلب على هذه الحوادث .

وكان شارل ، دوق أف بوربون رأس أسرة قوية قدر لها أن تحكم فرنسا من عام ١٥٨٩ إلى عام ١٧٩٢ . وكان أغنى رجل في البلاد بعد الملك ، وبين تابعيه ٥٠٠ نبيل ، وكان آخر البارونات العظام الذين يستطيعون أن يتحدوا ملك الدولة المتمركزة وقتذاك . وقدم لفرانسيس خدمة جليلة في الحرب ، وقاتل بشجاعة في مارينيانو ، أما في الحكم فلم يخدمه بهذا القدر إذ دفع أهالي ميلان إلى النفور منه بسبب حكمه الجائر ، ولما وجد أن الملك لم يزوده بالأموال الكافية قدم ١٠٠٠٠٠ جنيه من ماله الخاص ، وهو يتوقع أن تسدد له ، ولكنه لم يتسلم شيئاً . وكان فرانسيس ينظر بعين الارتباب والحسد إلى هذا القليل الذي يوشك أن يكون ملكاً ، فاستدعاه

من ميلان ، ووجه إليه إهانات حمقاء أو مقصودة تسببت في أن يكون بوربون خصمه اللدود ، وكان الدوق قد تزوج سوزان أميرة بوربون التي أوصت أمها بأن تعود ضياعها الشاسعة إلى التاج إذا ماتت سوزان دون أن تعقب ذرية . وماتت سوزان (عام ١٥٢١) ولكن بعد أن حررت وصية تركت فيها كل أملاكها لزوجها . وطالب فرانسيس وأمه بالأملاك باعتبارهما أقرب سليلين لدوق بوربون السابق . وعارض شارل هذا الادعاء وأصدر المجلس النيابي بباريس قراراً ضده . واقترح فرانسيس عقد صلح بمقتضاه يكون للدوق الحق في ربع الأملاك حتى وفاته ؛ بيد أنه رفض الاقتراح . وعرضت لويز ، وكانت وقتذاك في الحادية والخمسين على الدوق البالغ من العمر واحداً وثلاثين عاماً أن يتزوجها مع صك ملكية صريح بالأملاك كبثانة لها ، فرفض . وقدم له شارل الخامس عرضاً يبرز العرض السابق : هو أن يزوج شقيقته اليونورا وأن يؤيد مطالبه تأييداً كاملاً بجنود الإمبراطورية ، وقبل الدوق وفر ليلاً عبر الحدود ، وعين قائداً برتبة لفتنانت جنرال للجيش الإمبراطوري في إيطاليا (١٥٢٣) .

وأنفذا فرانسيس ضده لونيقيه . وأثبت عشيق مرجرت أنه غير كفء وسحق الدوق جيشه في رومانيا ، وفي أثناء تقهقر الجيش أصيب الشيفاليه دي بابار ، قائد حرس المؤخرة الخطيرة بجرح قاتل بطلقة من سلاح نارى (٣٠ أبريل سنة ١٥٢٤) ووجده بوربون الظافر يحتضر تحت شجرة ، فقدم له بعض عبارات الشناء على سبيل المواساة فرد عليه بايار « مولاي إني أستحق الرثاء ، أنا أموت بعد أن أديت واجبي ، ولكنى أرثى لك إذ أراك تعمل ضد مايكلك وبلدك وتمنث بقسمك (٥٢) » . وتأثر الدوق ولكنه كان قد أحرق خلفه كل الجسور وعقد اتفاقاً مع شارل الخامس وهنرى الثامن ينص على أن يقوم الثلاثة بغزو فرنسا في آن واحد ، وأن يتغابوا على كل الثروات الفرنسية ، ويقسموا البلاد بينهم . وكان نصيب الدوق من الصنفة أن يدخل

بروفالس ، وبأخذ إكس ويضرب حصاراً على مرسيليا ، ولكن حملته كانت تفتقر إلى المون وقوتها بمقاومة عنيفة غير متوقعة وانهارت فتراجع إلى إيطاليا (سبتمبر سنة ١٥٢٤) .

ورأى فرانسيس أن من الحكمة أن يطارده ، ويستولى من جديد على ميلان وأشار عليه بونيفيه ، وهو أحمق حتى النهاية ، بأن يستولى أولاً على بافيا ثم ينتفض على ميلان من الجنوب ، فوافق الملك وضرب عليها الحصار (٢٦ أغسطس سنة ١٥٢٤) ، ولكن الدفاع هناك أيضاً كان أقوى من الهجوم ، وظل الجيش الفرنسي محجوزاً عند الخليج أربعة أشهر ، وفي غضون ذلك جمع بوربون وشارل أمير لانوى (نائب الملك في نابلى) والمركيز دى بسكارا (زوج فتوريا كولونا) جيشاً جديداً قوامه ٢٧٠٠٠ رجل . وفجأة ظهرت هذه القوة خلف الفرنسيين . وفي اليوم نفسه (٢٤ فبراير سنة ١٥٢٥) وجد فرانسيس قواته يهاجمها هذا الحشد غير المتوقع من جانب ، وقوات المحاصرين في بافيا من جانب آخر . وحارب كالعادة في طبيعة المشتبكين ، وقتل بسيفه الكثيرين من الأعداء ، حتى ظن أن النصر قد تحقق ، ولكنه ضحى بقيادته العسكرية في سبيل إظهار شجاعته ، وكالت قواته موزعة توزيعاً سيئاً ، ومشاته يسرون بين مدفعيته والعدو ، وبهذا جعلوا المدفعية الفرنسية المتفوقة عديمة الجدوى ، وتفشى الاضطراب في صفوف الفرنسيين ، وفر دوق النسون ، وسحب معه حرس المؤخرة ، وصاح فرانسيس في جيشه الذي دبب فيه الفوضى أن يسير وراءه إلى ساحة القتال ، ولكن لم يرافقه إلا أعظم نبلائه شهامة ، وأعقب هذا منبحة في الفرسان الفرنسيين ، وأصيب فرانسيس بجروح في وجهه وذراعيه وساقيه ، ولكنه ظل يضرب بلا كلل ، وتهاوى فرسه تحته ومع ذلك ظل يقاتل . وسقط فرسانه المخلصون واحداً إثر الآخر إلى أن ترك وحيداً ، وأحدق به جنود الأعداء ، وكان على وشك أن يلتقي مصرعه ، عندما تعرفت عليه

ضابط فأنقذه واقتاده إلى لانوى ، الذى تقبل سيفه ، وهو يقوم بالحناءات خفيفة للدلالة على الاحترام .

واعتقل الملك فى قلعة بيزيجيون بالقرب من كريمونا ، حيث سمح له بأن يرسل إلى أمه التى كانت تحكم فرنسا أثناء غيابه رسالته التى كثيراً ما نقلت كما هى ، وكثيراً ما نقلت محرقة :

« إلى نائبة الملك فى فرنسا : سيدتى ، بودى أن تعرفى مدى معاندة البقية الباقية من سوء حظى : لم يبق لى فى العالم سوى الشرف وحياتى التى أنقذت ، ولكى تحمل إليك هذه الأنباء ، وأنت بوئسك ، القليل من العزاء ، توصلت إليهم أن يسمحو لى بكتابة هذه الرسالة إليك . . . وأنا أتوسل إليك ألا تقدمى على أى عمل طائش ، وأنت تباشرين ما عرفت به من فطنة معنادة ، لأنى أرجو ، بعد كل شيء ألا يتخلى عنى الله (٥٣) » .
وبعث برسالة مماثلة إلى مرجريت التى ردت على الخطابين :

« مولاي : إن الفرحة التى ما زلنا نشعر بها عند ما تلقينا خطابيك الكريمين ، اللذين أسعدك أن تكتبهما لى ولأمك ، تجعلنا نحس بالسعادة لاطمئناننا على صحتك التى تتوقف عليها حياتنا ، ويخيل لى أننا يلبغى ألا نفكر فى شيء سوى أن نحمد الله وأن نتوق إلى أن تصلنا باستمرار أنباؤك الطيبة ، وهى خير زاد نستطيع أن نعيش عليه . وبما أن الخالق قد من علينا بأن يبقى ثالوثنا متحداً أبداً فإن الاثنين الآخرين يتوسلان إليك أن تقبل هذا الخطاب ، عند ما يقدم إليك ، وأنت الثالث ، بنفس المودة القلبية التى تقدمها إليك خادمتك المتواضعتان المطيعتان والدتك وشقيقتك » .

لوز ، مرجريت (٥٤)

وكتب فرانسيس إلى الإمبراطور فى مدريد رسالة جد متواضعة بقول له فيها « إذا كان يسرك أن ينطوى قلبك على قدر قليل من العطف ، فمأخذ على عانقك مهمة إنقاذ حياة ملك فرنسا الأسير إنقاذاً يستحقه عن

جدارة . هـ فني وسعك أن تكون على ثقة من الحصول على كسب بدلا من أسير لا نفع منه ، وبهذا تجعل ملك فرنسا عبدك إلى الأبد . هـ ولم يكن فرانسيس قد تدرب على احتمال المأساة (هـه) .

وتلقى شارل أنباء انتصاره مهدوء ورفض أن يحتفل به ، كما اقترح كثيرون في مهرجان رائع . وانسحب إلى مخدعه (كما يقال لنا) وركع بصلي . وأرسل إلى فرانسيس ولويس ما خيل له أنها شروط معتدلة لتحقيق السلام وتحرير الملك :

(١) على فرانسيس أن يتخلى عن بورغنديا وأن يتنازل عن كل مطالبه في الفلاندرز وأرتوا وإيطاليا .

(٢) يجب تسليم الدوق بوربون كل الأراضي والمناصب التي يطالب بها .

(٣) يجب منح الاستقلال لكل من بروفانس ودوفيني .

(٤) يجب أن تعيد فرنسا إلى إنجلترا كل الأراضي الفرنسية التي كانت تابعة فيما سبق لبريطانيا - أي نورماندى وانجو وغسقوليا وجين .

(٥) على فرانسيس أن يوقع حلفا مع الإمبراطور وينضم إليه في حملة توجّه ضد الأتراك .

فأجابت لويز بأن فرنسا لن تتنازل عن قيراط واحده من الأراضي ، وأنها مستعدة للدفاع عن نفسها حتى آخر رجل . وتصرفت نائبة الملك وقتذاك بقوة وعزم وذكاء مما حمل شعب فرنسا على أن يصفح عن أخطائها التي ركبت فيها رأسها . وعملت في الحال على تنظيم وإعداد جيوش جديدة وأقامتها لحراسة كل المراكز المحتملة أن تتعرض للغزو . ولكي تصرف ذهن الإمبراطور عن فرنسا حث سليمان عاهل تركيا على إرجاء هجومه .

على بلاد الفرس وأن يقوم بدلا من ذلك بحملة تتجه غربا ، ولا نعرف الدور الذي لعبه توسلها في القرار الذي اتخذته السلطان ، ولكنه زحف عام ١٥٢٦ إلى هنغاريا وألحق هزيمة منكرة بجيش المسيحيين في موهاكس ، بلغت من الشدة حدا جعل قيام شارل بأى غزو لفرنسا بمثابة خيانة للعالم المسيحي . وفي الوقت نفسه أوضحت لويز هنرى الثامن وكليمنت السابع أن إنجلترا والبابوية على السواء سوف تنحدران إلى مرتبة العبودية إذا سمح للإمبراطور بالحصول على كل الأراضى التى طلبها ، وتردد هنرى فألحت لويز وعرضت عليه تعويضا قدره ٢٠٠٠٠٠٠ ٢٠٠٠٠٠٠ كروان فوقع حلفا دفاعيا هجوميا مع فرنسا (٣٠ أغسطس سنة ١٥٢٥) وفتحت هذه الدبلوماسية الأنتوية عيون الرجال وحطمت ثقة شارل بنفسه .

ونقل الملك الأسير إلى أسبانيا بمقتضى اتفاقية بين لويز ولانوى والإمبراطور ، وعندما وصل فرانسيس إلى بلنسية (٢ يوليو سنة ١٥٢٥) بعث إليه شارل برسالة رقيقة ، ولكن معاملته لأسيره لم ترتفع إلى مقام الفروسية . وخصصت لفرانسيس غرفة ضيقة فى قلعة قديمة فى مدريد ووضعته عليه حراسة مشددة ، وكانت الحرية الوحيدة التى منحت له هى أن يمتطى ظهر بغل بالقرب من القاعة تحت رقابة حراس مسلحين راكبين . وطلب مقابلة شارل ولكن شارل أجل هذه المقابلة وسمح بسجن فرانسيس أسبوعين سجننا آثار قلقه وغيظه ، حتى يخضع فرانسيس لدفع ثمن باهظ مقابل الحصول على حريته . وعرضت لويز أن تقابل الإمبراطور وتتفاوض معه ولكنه رأى من الأفضل أن يلعب على سجينه بدلا من أن يتعرض لفتنة امرأة تجعله ينجح إلى التساهل . فأبانهته بأن ابنتها مرجريت ، وهى أرملة وقتذاك سوف يسعداها أن تجدها جلالته الإمبراطورية ، مناسبة له ، ولكنه آثر عاها إيزابلا أميرة البرتغال ، بصداقتها البالغ قدره ٩٠٠٠٠٠ ٩٠٠٠٠٠ كراون . فهى تستطيع

أن تزوده في الحال بالمخدع والمأوى ، وبعد أن أمضى فرانسيس شهرين في سجن يتلهف فيه على حربته منقط صريع مرض خطير . وانطلق الأسبان إلى كنائسهم يصلون من أجل الملك الفرنسي آسفين لقسوة الإمبراطور . وصلى شارل أيضاً ، لأن الملك إذا مات فلن يكون له أهمية كرهينة سياسية ، وزار فرانسيس زيارة قصيرة ووعده بقرب إطلاق سراحه وبعث لمرجريت بأذن لها بالحضور ومواساة أخيها .

وسافرت مرجريت بحرا من ايجمورت (٢٧ أغسطس سنة ١٥٢٥) إلى برشلونه وهناك حملت في هودج بطيء ملئوا اخترق بها نصف طول أسبانيا إلى مدريد ، ووجدت السلاوي في قرض الشعر وبعث رسائل حارة متميزة إلى الملك ، وقالت « مهما يطلب مني ، حتى ولو كان أن أنثر رماد عظامي في مهب الرياح لأؤدي لك خدمة ، فليس فيه أمر غريب أو صعب أو شاق بالنسبة لي ، وحسبي أن أجد فيه السلاوي والراحة والطمأنينة والشرف (٥٦) » . وعندما وصلت بعد لأي إلى مخدع أخيها وجدته يتعافى بشكل ملموس ، بيد أنه أصيب بنكسة يوم ٢٥ سبتمبر ودخل في غيبوبة ، وخيل لمن حوله أنه يحتضر . وركعت مرجريت هي والأسرة يصلون ، وناولوه أحد القساوسة القربان المقدس . وتلت هذا فترة نقاهة مضيئة . ولبثت مرجريت شهرا مع فرانسيس ثم انطلقت إلى طليطلة لتطلب من الإمبراطور الرحمة ، فتلقى توسلاتها بفتور ، وكان قد علم بحلف هنري مع فرنسا وتلهف على معاقبة حليفه الأخير على ريائه ولويز على جراتها .

ولم تبق في يد فرانسيس إلا ورقة واحدة يلعب بها ، ولو أن من المحقق أو يكاد أنها قد تعنى سجنه مدى الحياة ، وبعد أن ألدن شقيقته بمغادرة أسبانيا بأمرع ما يمكن وقع (نوفمبر سنة ١٥٢٥) خطابا رسميا أعلن فيه تنازله عن العرش لابنه الأكبر ، ولما كان فرانسيس الثاني هذا صهيا لا يتجاوز

عمره ثمانى سنوات ، فقد عين لويز - وتعل محلها في حالة وفاتها - مرجريت وصية على عرش فرنسا ، وأدرك شارك في الحال أن ملكا بلا مملكة ، لا يملك شيئاً يتنازل عنه ، لا فائده ترجى منه ، بيد أن جلد فرانسيس من الناحية البدنية كان أقوى من شجاعته المعنوية ، ففي يوم ١٤ يناير سنة ١٥٢٦ وقع مع شارل معاهدة بليريد وكانت شروطها في جوهرها هي بعينها التي عرضها الإمبراطور على لويز ، بل كانت أقسى منها ، لأنها اقتضت أن يسلم أكبر ابنين للملك إلى شارل رهينتين لضمان تنفيذ الاتفاقية بإخلاص ، وفضلا عن هذا فإن فرانسيس وافق على أن يتزوج إليونورا شقيقة الإمبراطور ملكة البرتغال الأرملة ، وأقسم على أنه سيرجع إلى أسبانيا ليعود إلى السجن إذا لم ينفذ بنود المعاهدة (٥٧) . ومهما يكن من شيء فإنه أودع في يوم ٢٢ أغسطس سنة ١٥٢٥ مع مساعديه وثيقة رسمية تلغى مقدمات جميع العهود والاتفاقات والتنازلات والمخالصات وكل إلغاء وانتقاص وقسم يمكن أن يتعارض مع شرفه وصالح تاجه ، وفي عشية توقيع المعاهدة ردد هذه العبارة للمفاوضين معه من الفرنسيين وأعلن أنه وقع بطريق الإكراه ، والقسر والاعتقال وطول السجن ، وأن كل ما تضمنته الوثيقة كان ، ويجب أن يظل باطلا ولا أثر له (٥٨) .

وفي يوم ١٧ مارس ١٥٢٦ سلم نائب الملك لانوى وفرانسيس إلى المارشال لوتريك على ظهر نقالة مليئة في نهر بيداسوا ، الذي يفصل إرون الإسبانية عن هنداى الفرنسية ، وتسلم لانوى بدلا منه الأميرين فرانسيس وهنرى . ومنحهما أبوهما بركة ودمعة ، وهرع إلى الأرض الفرنسية . وهناك قفز على ظهر جواد وصاح في ابتهاج « ها أنذا ملك من جديد ! » وركب إلى بايون حيث كانت لويز ومرجريت في انتظاره ، وأهضى في بوردو وكونياك ثلاثة شهور قضاها في اللهو والرياضة ليسترد صحته وشغل نفسه بحب صغير . ولم لا ؟ ألم يعش عاماً عيشة الرهبان ؟ وكانت لويز التي

اشتجر النزاع بينها وبين الكونتيسة دي شاتوبرهان قد أحضرت معها وصيفة شرف جميلة شقراء الشعر ، تبلغ من العمر ثمانية عشر عاماً ، هي آن دي هيلي دي بيصليو التي أصابت بسهامها ، كما كان مقدرآ ، عينى الملك الجائعتين ، فتودد إليها فى اندفاع ، وسرعان ما ظفر بها حظية له . وشاركت الحظية الجديدة منذ تلك اللحظة إلى أن فرقهما المات لويز ومرجريت فى قلب الملك . وتحملت فى صبر زواجه باليونورا وعلاقاته غير الشرعية العارضة ، ومنحها لإتقاذ المظاهر زوجاً هو جين دي بروس ، وأنعم عليه بلقب دوق كما أنعم عليها بلقب دوقة ديتامب ، واهتم فى إعزاز عندما انسحب جين إلى ضيعة نائية فى بريتانى .

٦ - الحرب والسلام : ١٥٢٦ - ٤٧

عندما عرفت شروط معاهدة مدريد بصفة عامة أثارت تقريباً عداة عالمياً لشارل ؛ فقد ارتجف البروتستانت الألمان عندما توقعوا مواجهة عدو عزز قواه إلى هذا الحد ، واستاءت إيطاليا من ادعائه الحق فى السيادة على لومباردى ، وأحل كليمنت السابع فرانسيس من قسمه الذى كان قد ارتبط به فرانسيس فى مدريد ، وانضم إلى فرنسا وميلان وجنوا وفلورنسا والبندقية فى تكوين حلف كونيالك للدفاع المشترك (٢٢ مايو سنة ١٥٢٦) ، ووصف شارل ، فرانسيس بأنه « ليس بالسيد المهذب » ، وأمره أن يعود إلى سجنه الإسباني ، وأصدر أوامره بتشديد اعتقال ابنى الملك ، وأطلق العنان لقواده لتأديب البابا ،

وتدفق جيش إمبراطورى ، احتشد فى ألمانيا وأسبانيا ، إلى إيطاليا وتسلق بالسلام أسوار روما (مات الدوق بورهون فى العملية) ، ونهب المدينة نهياً كاملاً أكثر مما فعل بها القوط أو الوندال من قبل ، وقتل ٤٠٠٠ رومانى وسجن كليمنت فى سان إنجلو . وأكد الإمبراطور ، الذى كان قد بتى فى

أسبانيا لأوروبا المدعورة أن جيشه الجائع قد تجاوز تعليماته ، ومع ذلك فإن ممثليه في روما احتفظوا بالبابا سجيناً في سان انجلو من ٦ مايو إلى ٧ ديسمبر سنة ١٥٢٧ ، وأكروهوا بابا يكاد يكون مفلساً على دفع تعويض قدره ٣٦٨٠٠٠ كراون .

واستغاث كليمنت بفرانسيس وهنرى وطلب منهما العون ، فبعث فرانسيس إلى إيطاليا لوتريك على رأس جيش نهب بافيا منتقماً منها في تهور لمقاومتها له عامين قبل ذلك ، وتساءل الإيطاليون هل الأصدقاء الفرنسيون أفضل من الأعداء الألمان ؟ ومر لوتريك على روما مرور الكرام وحاصر نابولي وبدأت المدينة تعاني من المجاعة . وفي غضون ذلك كان فرانسيس قد أغضب أندريا دوريا قائد بحرية جنوا ، فاستدعى دوريا أسطوله من حصار نابلي وانضم إلى جانب الإمبراطور ومون المحاصرين . وهلك جيش لوتريك جوعاً بدوره ، ومات لوتريك نفسه وذاب جيشه (١٥٢٨) .

ولا تكاد ملهاة الحكام تفرج كرب الشعب . وعندما ظهر مبعوثو فرانسيس وهنرى في بوجوس لإعلان الحرب بصفة رسمية ، رد شارل على المبعوث الفرنسي رداً فاجعاً بقوله « إن ملك فرنسا ليس في موقف يسمح له بتوجيه مثل هذا الإعلان إلى ، إنه أسيرى . إن مولاكم قد تصرف مثل أى جبان أفاق بعدم محافظته على وعده الذى ارتبط به في معاهدة مدريد ، وإذا راقه أن يقول ما يخالف هذا فإنى سوف أحافظ على وعدى له بحياتى مقابل حياته (٥٩) » .

وقبل فرانسيس ثوا هذا التحدى إلى البراز وبعث إليه رسولا يقول له : « لقد قلت إفكاً وبهتاناً مبيهاً » . واستجاب شارل بعظمة ، وعين مكان للنزال وطلب من فرانسيس أن يحدد موعد اللقاء ، بيد أن النبلاء انفرنسيين اعترضوا طريق الرسول وأدت إجراءات التأخير المستأنية إلى تأجيل المباراة

إلى ما لا نهاية . فقد بلغت الأمم درجة من النمو لا يمكن عندها تسوية خلافاتها الاقتصادية أو مصالحها السياسية بنزال فردي أو بجيوش صغيرة من المرتزقة التي كانت تقوم بلعبة الحرب في إيطاليا إبان عصر النهضة ، ولا شك أن الطريقة الحديثة لحسم الأمور بالتنافس في التدمير قد اتخذت شكلها في هذا النزاع بين آل هامسبورج وقالوا (*) .

واقضى الأمر أن تتصدي امرأتان إلتقيا الحاكمن فن السلام وحكمته ، فقد اتصلت لويز أميرة سافوى بمرجريت النموية نائبة الملك في الأراضي المنخفضة ، واقترحت هاها أن يتخلى فرانسيس ، المتلهف على عودة ابلية ، عن كل مطالبه في الفلاندرز وارنوا وإيطاليا وأن يدفع فدية قدرها ٢٠٠٠٠٠ ر ٢٠٠٠٠٠ كراون ذهبي ، لإطلاق سراح ولديه ، على ألا يتنازل أبداً عن بورغنديا ، وأقنعت مرجريت ابن أخيها بإرجاء مطالبته بيورغنديا وأن ينسى مطالب الدوق بوربون ، الذي مات وقتذاك في الوقت المناسب .

وفي ٣ أغسطس عام ١٥٢٩ وقعت المرأتان ومعاونوهما الدبلوماسيون معاهدة صلح السيدات في كامبراي ، وحصلت الفدية من التجارة والصناعة ودم فرنسا ، ونعم بالحرية من جديد أمير البيت المالكة بعد أربع سنوات من الأسر ، وعادا بقصص تروى عن المعاملة القاسية التي أثارها فرانسيس وفرنسا . وبينما وجدت المرأتان القديرتان سلاماً دائماً - مرجريت

(*) كانت المبارزة في العصور الوسطى بمثابة إجراء مشروع تجيزه الملكية أو القضاء ويشرفان عليه يحتكم به الخصمان إلى الله . وأصبحت في القرن السادس عشر بمثابة دفاع فردي وخاص عن الشرف المهيب . وتطورت قوانينها الصارمة الخاصة بها خارج قوانين الدولة ، وأسهمت إلى حد ما في تطوير قواعد السلوك المهذب والضببط الحصيف للنفس . وكانت المبارزة مصرحاً بها قانوناً في فرنسا بعد عام ١٥٤٧ ، وظل الرأي العام يجيزها . أما في إنجلترا فلم تكن تمارس في عهد إليزابيث ، وعلى أي حال فإن الاحتكام إلى المبارزة ظل مشروعاً هناك حتى عام ١٨١٧ .

عام ١٥٣٠ ولويس عام ١٥٣١ - أخذ الملكان بعدان العدة لاستئناف الحرب بينهما .

وتلفت فرانسيس حوله في كل مكان يطلب العون ، فأرسل إلى هنري الثامن مبلغاً من المال للتهديئة لأنه تجاهله تقريباً في تسوية كامبراي ، وتعهد هنري ، وقد أغضبه شارل لمعارضته في « طلاقه » ، بتأييد فرنسا : وفي عام أو نحوه تفاوض فرانسيس للدخول في أحلاف مع الأمراء البروتستانت الألمان ومع الأتراك ومع البابا . ومهما يكن من أمر فإن الخبر الأعظم المتذبذب سرعان ما عقد صلحاً مع شارل وتوجه إمبراطوراً (١٥٣٠) - هو آخر تنويع لإمبراطور في الإمبراطورية الرومانية المقدسة قام به بابا . ثم ارتاع كليمنت من ملك كان في الواقع قد حول إيطاليا إلى مقاطعة في ملكه ، فسعى إلى عقد رابطة جديدة مع فرنسا بعرضه تزويج ابنة أخيه كاترين دي مديتشي من ابن فرانسيس ، هنري دوق أورليان ، والتقى الملك والبابا في مارسيليا (٢٨ أكتوبر سنة ١٥٣٣) ، وقام البابا بنفسه بمراسم الزواج ذي المغزى التاريخي . ومات كليمنت بعد عام ، ولم يكن قد استقر رأيه بعد على أي شيء .

وكان الإمبراطور ، الذي شاخ وهو في الخامسة والثلاثين ، يحمل أعباءه الملقاة على عاتقه في عزم واهن . وذعر عندما علم - من كلمة وزير السلطان إلى فرديناند ملك النمسا - أن حصار الأتراك لفينا عام ١٥٢٩ ، إنما تم استجابة لاستغاثة فرانسيس ولويس وكليمنت السابع لمساعدتهم ضد الإمبراطورية التي كانت تطوقهم (٦٠) . وفضلاً عن هذا فإن فرانسيس تحالف مع الزعيم التونسي خير الدين بارباروسا الذي كان يكدر صفو التجار المسيحيين في غربي البحر الأبيض المتوسط ، ويغير على المدن الساحلية ويسوق الأسرى من المسيحيين إلى أسواق النخاسة . وحشد شارل جيشاً آخر وأسطولا ثانياً وعبر البحر إلى تونس (١٥٣٥) ، واستولى عليها ،

وحرر ١٠٠٠٠٠ عبد مسيحي وكافاً جنوده الذين لم تدفع رواتبهم بإطلاق العنان لهم لنهب المدينة وذبح السكان المسلمين :

وعاد شارل إلى روما (٥ أبريل سنة ١٥٣٦) بعد أن ترك حاميات في بونا ولاجوليتا عودة المدافع المظفر للعالم المسيحي ضد العالم الإسلامي وملك فرنسا . وفي غضون ذلك كان فرانسيس قد جدد مطالبته بميلان ، وفي مارس عام ١٥٣٦ غزا دوقية سافوي لإزالة العقبة التي تعترض طريقه إلى إيطاليا . واستشاط شارل غضباً ، وفي خطاب حار ألقاه أمام بول الثالث البابا الجديد ومجمع الكرادلة بأسره أخذ يعدد مرة أخرى جهوده من أجل السلام . وانتهاك الملك الفرنسي لمعاهدتي مدريد وكامبواي و « الأحلاف التي عقدها جلالته نصير المسيحية العظيم » (كما كان يسمى فرانسيس) مع أعداء الكنيسة في ألمانيا وأعداء المسيحية في تركيا وإفريقية ، وأنهى خطابه بتحدى فرانسيس مرة أخرى إلى البراز قائلاً : « دعونا لا نستمر في المجازفة بسفك دماء رعايانا الأبرياء ، دعونا نحسم النزاع بالنزال رجلاً أمام رجل بأي أسلحة يروقه أن يختارها . . . وبعد ذلك دعوا القوات المتحدة لألمانيا وأسبانيا وفرنسا تستخدم لكسر شوكة الأتراك واستئصال الهرطقة من العالم المسيحي » .

كان خطاباً بارعاً لأنه أجبر البابا على أن ينحاز إلى صف الإمبراطور ، ولكن أحداً لم يأخذ عرضه الخاص بالمبارزة محمل الجد ، فقد كان القتال بالتفويض أسلم . وغزا شارل بروفانس (٢٥ يوليو سنة ١٥٣٦) بجيش قوامه ٥٠٠٠٠ رجل وكان يأمل أن يهاجم جناح الفرنسيين أو يشغلهم في سافوي بالزحف أعلى الرون . ولكن القائد آن دي مونمورانس أمر القوات الفرنسية الضعيفة بأن تحرق أثناء انسحابها كل شيء يمكن أن يتزود به جنود الإمبراطور ، وسرعان ما تخلى شارل عن الحملة وكان دائماً يعوزه

المال ولا يستطيع أن يقدم الطعام لرجالها ، وكان بولس الثالث يتلهف على إطلاق يد شارل لانتيام بهجوم على الأتراك أو اللوثرين فأقنع العملاق المشلول بالالتقاء معه - في حجرات منفصلة تثير الحمامة - بمدينة نيس وتوقيع هدنة لمدة عشر سنوات (١٧ يونيو ١٥٣٨) . وبعد شهر قامت اليونورا ، وهي زوجة أحدهما ، وشقيقة الآخر ، بتدبير لقاء شخصي بين الملك والإمبراطور في إيجسمورت . وهناك نسيا أنهما ملاكان وأصبحا إنسانين ، وركع شارل محتضن أصغر أولاد الملك ، وأعطاه فرانسيس ماسة ثمينة مركبة على نحاس نقشت عليه عبارة : « شاهد ورمز للحب » ، ونخلع شارل من جيده طوق الخزة الذهبية ، وانطلقا معاً لسباع القديس ، وابتهج أهل المدينة لشبوع السلام وهتفوا : « الإمبراطور ! الملك » ، وعندما ثارت غنت ضد شارل (١٥٣٩) وانضمت إلى بروجس وإيبرس في عرض نفسها على فرانسيس ، قاوم الملك الإغراء ، وعندما وجد شارل ، في إسبانيا أن سفن المتمردين أو خشية الإبحار « تسد الطرق البحرية ، أجاب فرانسيس طلبه المرور في فرنسا . وأشار على الملك مشروعه بأن يُكره الإمبراطور وهو في الطريق ، على توقيع تنازل عن ميلان للدوق أورليان ، ولكن فرانسيس رفض وقال : « عندما تقوم بشيء كريم يجب أن تفعله كاملاً وبجراحة » . ووجد مهرج البلاط يكتب في « يوميات مهرج » اسم شارل الخامس . لأنه كما قال تريبوييه أنه يكون أشد بلاهة مني لو أتى ليمر من خلال فرنسا « فسأله الملك : « وماذا تقول إذا تركته يمر ؟ » فقال : « سوف أمحو اسمه وأدون اسمك مكانه » (٦١) . وترك فرانسيس ، شارل يمر دون أن يعوقه أحد وأمر كل مدينة في الطريق أن تستقبل الإمبراطور بما يستحق من تكريم ملكي واحتفالات .

وانتهت الصداقة المقلقلة عندما أسر الجنود الإسبان بالقرب من بافيا المبعوثين الفرنسيين وهم يحملون عروضاً جديدة من فرانسيس إلى سليمان

للتحالف معه (يوليو سنة ١٥٤١) . وفي هذه الفترة كان بارباروسا يغير مرة أخرى على المدن الساحلية في إيطاليا ، وسافر شارل ببحراً من مالوركا مع أرمادا(*) أخرى للقضاء عليه ، ولكن الأسطول واجه عواصف شديدة أجبرته على العودة خاوي الوفاض إلى أسبانيا . وكان حظ الإمبراطور في هبوطه ، فقد ماتت زوجته الشابة (١٦٣٩) التي كان قد تعلم أن يجيها وكانت صحته تتدهور ، وأعلن فرانسيس الحرب عليه عام ١٥٤٢ بسبب ميلان ، وكان حلفاء الملك وقتذاك السويد والدانمارك وبلدراوند وكليف وسكوتلند والأتراك والبابا ، ولم يؤيد شارل إلا هنري الثامن في مقابل ثمن ما ، ورفض المجلس التشريعي الإسباني الموافقة على إعانات مالية إضافية من أجل الحرب ، وانضم الأسطول التركي إلى الأسطول الفرنسي في ضرب الحصار على نيس ، وكانت وقتذاك أرضاً تابعة للإمبراطور (١٥٤٣) ، وفشل الحصار ، إلا أن بارباروسا وجنوده المسلمين سمح لهم بقضاء الشتاء في طولون حيث باعوا علناً عبيداً من المسيحيين (٦٢) . واسترد الإمبراطور في صبر زمام الموقف فوجد وسيلة لإصلاح ذات البين مع البابا ، وكسب إلى صفته فيليب الهسي بالتغاضي عن زواجه من اثنتين ، وهاجم دوق كليف وتغلب عليه ، ووثق صلته بحلفائه الإنجليز وواجه فرنسا بقوة عظيمة جداً حملت فرانسيس على الانسحاب والتسليم له بأجناد الحملة (أكتوبر سنة ١٥٤٣) .

ورحب شارل مرة أخرى ، بعد أن وجد أنه فقير جداً إلى حد لا يستطيع معه أن يزود جيشه بالميرة ، بعرض للسلام ووقع مع فرانسيس معاهدة كريبي (١٨ سبتمبر سنة ١٥٤٤) . وتخلي الملك عن مطالبه في الفلاندرز وأرتوا ونابلي ولم يعد شارل يطالب ببورغندي ، وسوف تزوج أميرة ، من آل هابسبورج ، من أمير فرنسي ، ونقدم إليه ميلان صداقاً لها . (كان يمكن تدهير معظم ذلك سلمياً عام ١٥٢٥) .

(*) أسطول حربي كبير شبيه بالإرمادا المشهورة .

وكان شارل وقتذاك مطلق اليد في التغلب على البروتستانت في ملبرج وقد صورته نيسـيان هناك ، وهو لا يشكو من داء النقرس ، فخوراً منتصراً ، منهوكتاً متعباً بعد ألف من التقلبات ومائة من انقلابات عجلة الحظ الساخنة ،

أما فرانسيس فقد انتهى أمره وانتهت معه كذلك فرنسا أو كادت ، وهو إلى حد ما لم يفقد شيئاً سوى الشرف ، وقد حافظ على بلاده بتعجل ترك المثل العليا للفروسية ، ومع ذلك فقد كان يمكن قدوم الأتراك دون أن يوجه الدعوة إليهم ، وقد أعان مجيئهم فرانسيس على كبح جماح الإمبراطور الذي لو لم يجد مقاومة ، لنشر محكمة التفتيش الإسبانية في الفلاندرز وهولندا وسويسرا وألمانيا وإيطاليا ، وقد وجد فرانسيس فرنسا تنعم بالسلام والرخاء ، وتركها مفلسة على حافة حرب أخرى . وقبل وفاته بشهر ، وبينما كان يقسم مؤكداً صداقته لشارل ، أرسل ٢٠٠٠٠٠ كراون إلى البروتستانت في ألمانيا لتأييدهم ضد الإمبراطور (٦٣) ، وهو - وأقل درجة من ذلك شارل - يتفق في الرأي مع مكيافيلي بأن رجال السياسة الذين من واجبهم الحفاظ على بلادهم ، يمكنهم مخالفة القانون الأخلاقي الذي يطالبون به مواطنيهم الذين لا هم لهم إلا الحفاظ على أرواحهم . وقد يغتفر له الشعب الفرنسي حروبه ولكنه لم يستسغ حلاوة أبهة مناهجه وبلاطه عندما أدرك فداحة الثمن . وكان قد فقد شعبيته فعلاً عام ١٥٣٥ .

وواسى نفسه بالاستمتاع بالجمال حياً وميتاً . وقد اتخذ في أواخر سني حياته من فونتنبلو مقراً أثيراً له وأعاد بناءه وابتهج بالفن الأنثوي الرشيق الذي كان الإيطاليون يزينونه به . وأحاط نفسه بفرقة صغيرة من النسوة الصغيرات اللاتي كن يتمتعن بطلعاتهن البهية ومرجهن . وأصيب عام ١٥٣٨ في عاصمته بمرض وبدأ منذ ذاك يتلعم تلعثماً مخجلاً . وحاول أن يعالج ما كان على الأرجح مرض الزهري بأقراص الزئبق ، التي وصفها له

بارباروسا ، ولكنها لم تنجح معه (٦٤) : وحطم روحه دمل عنيد كريبه
للرائحة وأضفى على عينيه ، اللتين كانتا حادتين يوماً ، نظرة شوهاء
باكية ، ودفعته إلى الاعتصام بورع لا يناسبه . وكان عليه أن يراقب
طعامه لأن الشك خامره في أن بعض رجال الحاشية الذين يتوقعون رفعة
شأنهم في عهد خلفه ، يسعون إلى تسميمه . ولاحظ في حزن أن الحاشية
تدور وقتذاك حول ابنه الذي كان بالفعل يوزع المناصب وينتظر في صبر
حلول دوره في التحكم في موارد فرنسا . واستدعى وريثه الوحيد وهو على
فراش الموت في رامبوييه وحذره من أن تسيطر عليه امرأة - لأن هنري
كان مخلصاً بالفعل لديان دي بواتيه - واعترف الملك بخطاياها في تلخيص
متعجل ، ورحب بالموت وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة وهمس فرانسيس ،
دوق دي جيز ، وكان واقفاً عند الباب ، إلى الذين كانوا في الحجرة
المجاورة ، أن العاشق العجوز يحتضر (٦٥) ، ومات وهو يردد اسم يسوع .
وكان في الثالثة والخمسين من عمره ولقد حكم اثنتين وثلاثين عاماً .
وشعرت فرنسا بأن حكمه دام طويلاً ، ولكن عندما استردت حرمتها منه ،
غفرت له كل شيء ، لأنه كان لبقاً حتى في ارتكاب آثامه ، ولأنه عشق
الجمال وكان فرنسا مجسدة .

ومات هنري الثامن في ذلك العام نفسه ، ولحقت به مرجريت بعد عامين ،
وقد كانت بعيدة جداً عن فرانسيس ، بل كانت أبعد من أن تدرك أن
الموت يترقبه . وعندما وصلتها كلمة ، وهي في دير بأنجوليم ، تنبها بأنه
مصاب بمرض خطير كادت تفقد رشدها . وقالت : « إن من يأتي إلى
عتبة بابي ، كائناً من يكون ، ويعلم لي أن شقيقي الملك قد أبل من
مرضه ، ولا بد أن مثل هذا الرسول سيكون متعباً منهوك القوى ، تغطيه
الأوحال والأوشاب ، ومع ذلك فسوف أذهب إليه وأقبله وأحتضنه
كما لو كان أعظم الأمراء والسادة أناقة في فرنسا ، وإذا كان في حاجة إلى

فراش ، فسوف أمنحه فراشي ، وأرقد على الأرض مبتهجة لما حمله إلى من
أبناء طيبة (٦٦) » وبعثت بالرسول إلى باريس فعادوا وكذبوا عليها ، وأكدوا
لها أن الملك سليم معافى ، إلا أن الدموع المختلطة التي انثالت من عيني راهبة
كشفت عن الحقيقة ، ولبثت مرجريت أربعين يوماً في الدير وهي تعمل
رئيسة له ، تردد الأناشيد المقدسة القديمة مع الراهبات .

وعندما دادت إلى بو أونيراك أسلمت نفسها للتقشف الشديد ،
وخيانات زوجها ، وأهواء ابنتها المتقلبة ، ووجدت السلوى ، بعد السنوات
التي أمضتها في شجاعة نصف بروتستانتية ، في الشعيرة الكاثوليكية بألوانها
وبخورها وموسيقاها الجذابة ، وأسقتها الكالفينية التي كانت تأسر جنوبي
فرنسا ، وأفرعتها ، فعادت إلى تقواها التي عرفت بها في الطفولة .

وفي ديسمبر عام ١٥٤٩ ، وبينما كانت ترقب مذنباً في السموات ، أصيبت
بحمى أثبتت أنها كانت عنيفة ، إلى حد أنها حطمت هيكلها وروحاً أو هنتهما
قساوات الحياة . وكانت قبل ذلك بسنوات قد كتبت سطوراً وكأنها نصف
عاشقة لخدر الموت :

رباه متى يأتي اليوم

الذي طالما اشتقت إليه

والذي أجد نفسي بقوة الحب

منجذبة إليك ؟

ألا فلتجفف دموع عيني الحزيبتين

وسط تنهدات الفراق

وامن علي بخير أنعمك علي الإطلاق

وهي نعمة النوم اللذيذ .

٧ - ديان دي پواتيه

كان « للعاشق العجوز » قد أنجب سبعة أطفال ، كلهم من كلود . وكان الابن الأكبر فرانسيس مثل أبيه ، وسما ، جذاباً مرحباً . أما هنري المولود عام ١٥١٩ فكان هادئاً نجولاً ، وأهملاً قليلاً ، ولم ينافس أخاه إلا في البأساء . فقد أمضيا أربع سنوات من الشدة والإذلال في أسبانيا ثم ركت عليهما بصيات لا تمحى . ومات فرانسيس بعد إطلاق سراحه بست سنوات ، أما هنري فقد غدا نزاعاً للصبى أكثر من ذى قبل ، وانطوى على نفسه ، وأعرض عن المحزون الذى انغمست فيه الحاشية ، وكان له رفقاء ، ولكنهم قلما رأوه مبيتها ، وقال الناس إنه قد غدا اسبانيا في إسبانيا .

ولم يترك له الخيار عندما تزوج من كاترين دي مديتشي ، وهذا هو شأنها عندما تزوجت به . فقد مرت هي أيضاً بمحن ، إذ مات والداها كلاهما متأثرين بمرض الزهري في خلال اثنين وعشرين يوماً من مولدها (١٥١٩) ، وأخذت منذ ذلك الوقت حتى زواجها تنتقل من مكان إلى مكان ، لا حول لها ولا قوة ، ولا يرغب فيها أحد . وعندما أقصت فلورنسا حكماها من آل مديتشي (١٥٢٧) احتفظت بكاترينا رهينة لضمان حسن سلوكهم ، وعندما عاد هؤلاء المنفيون لحصار المدينة هددت بالإعدام إذا لم تصرفهم عنها . واستخدمها كليمنت السابع رهينة ، ليكسب تأييد فرنسا لسياسته البابوية ، وانطلقت طائعة إلى مرسيليا وهي فتاة في الرابعة عشرة من عمرها ، وتزوجت من غلام في الرابعة عشرة من عمره أيضاً ، لم يكذب يتحدث معها إبان الاحتفال بأكله . وعندما وصلا إلى باريس قوبلت باستقبال فاتر لأنها جلبت معها عدداً كبيراً من الإيطاليين ، وأصبحت في لظر الباريسيين « الفلورنسية » ، وعلى الرغم من أنها حاولت جهدها أن تسحرهم ، فإنهم

لم يكنوا لها وداً قط ، لا هم ولا زوجها . وظلت عشر سنوات عاقراً ، على الرغم من الجهود العديدة ، وارتاب الأطباء في أنها أصيبت بعدوى مرض وبيل ، ورثته من أبيها . وعندما تبيد أمل كاترين دي مديتشي كما كانت تسمى في فرنسا ، في الحصول على ذرية ذهبت تبكي إلى فرانسيس وهرضت عليه أن تقدم طلباً بالطلاق وتزوي في دير ، ورفض الملك في كرم منه هذه التضحية . وفتحت أخيراً أبواب الأمومة ، وجاء الأولاد واحداً إثر الآخر كل عام تقريباً . وبلغ عددهم على الإجمال عشرة ، وهم يخاصة فرانسيس الثاني الذي قدر له أن يتزوج ماري ستيوارت واليزابث التي قدر لها أن تتزوج فيليب الثاني وشارل التاسع الذي شاءت الأقدار أن يصدر الأمر بمذبحة سان بارثولوميو وإدوارد الذي أصبح هنري الثالث بطل المأساة المعروفة ومرجريت دي فالوا التي قدر لها أن تتزوج هنري ملك نافار وتضطهده وطوال كل تلك السنوات العقيمة أو الخصبية باستثناء السنوات الأربع الأولى كان زوجها يمنح حبه لديان دي بواتيه في الوقت الذي كان ينجب فيه منها أولاداً .

وكانت ديان فريدة بين عشيقات الملوك اللاتي كان لهن دور رئيسي في التاريخ الفرنسي . ولم تكن جميلة . وعندما أحبها هنري ، وهو في السابعة عشرة من عمره (١٥٣٦) كالت في السابعة والثلاثين من عمرها ، وبدأ الشيب يغزو شعرها ، والتجاعيد تسجل سنوات عمرها على جبينها ، وكانت مفاتها الجسدية لا تعدو الطلاوة ، والبشرة الناضرة بفضل غسلها بالماء البارد في جميع الفصول ، ولم تكن عاهرة . وكانت فيما يبدو مخلصه لزوجها لويس دي بريزيه حقاً وفاته ، وعلى الرغم من أنها انغمست مثل هنري ، في هلاقتين جانبيتين أو ثلاث ، إبان علاقتها غير الشرعية بالملك ، فإنها كانت مجرد حوادث تغتفر وألحان لطيفة في أغنية حبها . ولم تكن ممن يمنحون إلى الخيال ، بل كانت عملية جداً ، تصنع كل شيء في أوانه . ولم تستنكر

فرنسا أخلاقها بل أنكرت عليها بذخها ولم تكن مثل عشيقات فرانسيس -
رعوسا جميلة ولكنها جوفاء ، يقفزن على أقدام مرحة إلى أن تفاجهن
الأمومة ، فقد تلقت ديان تعليماً لا بأس به ، وكانت تتمتع بإدراك سليم ،
وسلوك حسن ، وبديهة حاضرة . وها نحن أولاء أمام عشيقه تسحر
الألباب بذهنها .

وكانت تنحدر من أسرة كريمة ونشأت في بلاط آل بوربون في مولان
الذي اشتهر بفن الحب . وشارك أبوها جان دي بواتيه ، كونت دي سان
فالييه ، الدوق دي بوربون في خيانة الوطن بعد أن حاول الوقوف في
سبيلها ، فقبض عليه وحكم عليه بالإعدام (١٥٢٣) ، وحصل زوج
ديان ، وكان ذا حظوة لدى فرانسيس ، على العفو لأبيها (*) . وكان لويس
دي بريزيه حفيد شارل السابع من أنيس سوريل ، وكان ذا مقدرة أو نفوذ
لأنه أصبح قيم القصر الأكبر ومحافظ نورماندى . وكان في السادسة
والخمسين من عمره عندما أصبحت ديان البالغة من العمر ستة عشر عاماً
زوجة له (١٥١٥) . وعندما ماتت شيدت تخليداً لذكراه في روبين قبرا
ضخماً عليه كتابة قطعت على نفسها فيها عهداً بالوفاء الدائم له ولم تزوج قط
مرة ثانية ، ولم ترتد بعد ذلك إلا الثياب السوداء والبيضاء . والتقت بهنرى
عندما سلم في بايون ، وهو بعد صبي في السابعة من عمره ، كرهينة بدلا من
والده . وبكى الصبي المرتبك فحنت عليه ديان ، وكانت وقتذاك في السابعة
والعشرين ، حنان الأم الرووم وواسته ، إذ كانت أمه كلود قد ماتت منذ ،
عامين ، ولعل ذكرى تلك الأحضان الحنونة قد بعثت في ذاكرته من جديد ،
عندما التقى بها بعد أحد عشر عاماً . وعلى الرغم من أنه كان قد مضى على
زواجه وقتذاك أربعة أعوام فإنه كان لا يزال بعيداً عن النضج العقلي ،

(*) لا صحة للقصة التي أوردتها هيجو في « الملك يلهو » من أن ديان اشترت العفو

كما كان سوداوى المزاج شديد الحياء بصورة غير مألوفة . كان يريد
أما أكثر مما يريد زوجة ، وهنا ظهرت ديان من جديد ، هادئة ، رقيقة
مواسية . وأقبل عليها أولاً إقبال الابن ، وظلت العلاقات بينهما ، فيما يبدو ،
تهيمن عليها العفة حيناً . واكسبته محبتها ونصحها الثقة بنفسه ، فكف ، وهو
تحت وصايتها ، عن معاداة الناس وأعد نفسه ليكون ملكاً . ونسب إليهما
الرأى العام أنهما رزقا بطفلة واحدة ، هى ديان دى فرانسيس ، التى أنشأتها
مع ابنتها من بريزيه . وتبنت أيضاً ابنة هنرى التى أنشأها فى سنة ١٥٣٨ من
وصيفة بيدمونتية دفعت ثمن لحظة لقائها بالملك بأن أصبحت راهبة مدى
الحياة . وهناك طفل آخر غير شرعى كان ثمرة قصة هنرى الأخيرة مع
مارى فليمنج ، مربية مارى ستيوارت . وعلى الرغم من هذه التجارب فإن
إخلاصه كان يزيد يوماً بعد يوم لديان بوأتييه . ونظم لها قصائد ممتازة
حقاً وأمطرها بالمجوهرات والضياع . ولم يهمل كاترين تماماً ، وكان يتناول
معها عادة طعام العشاء ويقضى معها الأمسيات ، وقبلت ، شكراً منها لما نالته
من شذرات حبه ، فى حزن صامت ، أن ترى امرأة أخرى ولىة عهد
فرنسا الحقيقية : ولا بد أنها أحست بأنها أصيبت بجرح آخر عندما رأت أن
ديان كانت تستحث هنرى من حين لآخر على أن ينام مع زوجته (٦٨) .

ولم يؤد ارتقاؤه العرش إلى خفض مكانة ديان . وكتب لها أذل
الرسائل ، يتوسل إليها أن تسمح له بأن يكون خادماً مدى الحياة . وقد
جعلها ولها بها غنية كالملكة تقريباً ، وضمن لديان نسبة مئوية من كل المبالغ
التى يتسلمها من بيع الوظائف ، وكانت كل التعيينات فيها تقريباً فى نطاق
سلطانها . ومنحها جواهر التاج الذى كانت قد وضعتة الدوقة ديتامب على
رأسها ، وعندما احتجت الدوقة هددتها ديان باتهامها بالبروتستانتية ، ولم ترض
عنها إلا بعد أن قدمت لها هدية من العقار . وأذن لها هنرى أن تحتفظ لنفسها
بمبلغ ٤٠٠٠٠٠ تالر ، كان فرانسيس قد أوصى به لتأييد الأُمراء

البروتستانت في ألمانيا سرآ (٦٩) . وبفضل هذه المنح أعادت ديان بناء قصر برنزيه الريفى القديم في آنيه ، طبقاً لتصميم وضعه فيلبر ديلورم ، وشيدت قصراً رحباً لم يصبح الدار الثانية للملك فحسب بل أصبح أيضاً متحفاً للفن ومنتدى جميلاً يلتقى فيه الشعراء والفنانون والدبلوماسيون والدوقات والقادة والكرادلة والمعشوقات والفلاسفة . وهنا كان المجلس الخاص للدولة يعقد فى الواقع ، وكانت ديان بمثابة رئيسة لوزراء ، ذكية رصينة . وفى كل مكان - فى آنيه وشينونسو وأمبواز والووفر - كانت الأطباق والدروع المرسومة عليها الشعارات وأشغال الفن ومقاعد جوقة للترنيم تحمل الرمز الجرىء لقصة الحب الملكية ، فهناك حرفا د D موضوعان ظهر الظهر ، بينهما شرطة تكون حرف H . وثمة أمر مشير للعاطفة وجميل فى هذه الصداقة الفريدة ، التى بنيت على الحب والمال ، وإن دامت حتى الموت .

وفى أثناء كنفاح الكنيسة ضد الهرطقة وضعت ديان كل ما تملك من نفوذ ، لتأييد عقيدة المحافظين وسياسة القمع . وكانت لديها أسباب كثيرة تدعوها للتموى : فقد كانت ابنتها متزوجة من ابن لفرانسيس هو الدوق دى جيز ، وكان فرانسيس هو وشقيقه شارل ، كاردينال اللورين ، - وكلاهما من ذوى المكانة فى آنيه - زعيمى الحزب الكاثولى فى فرنسا . أما هنرى فإن تقواه فى الطفولة ازدادت شدة بالسنوات التى أمضاها فى أسبانيا ، وكانت خطاباته الغرامية تخلط بين الله وديان كمنافسين على قلبه ، وأعانتته الكنيسة ، وأعطته ٣٠٠٠٠٠ ر ٣٠٠٠٠ ر كراون ذهبى لإلغاء مرسوم والده الذى قيد فيه من سلطة المحاكم الكنسية (٧٠) .

ومع ذلك فإن البروتستانتية كانت تشتد فى فرنسا ، وكان كالفن وآخرون غيره يرسلون مبعوثين أحرزوا نجاحاً رائعاً . وما أن حل عام ١٥٥٩ حتى كانت عدة مدن ، كايين وبواتييه ولا روشيل ومدن كبيرة فى بروفانس - يغلب عليها الهوجينوت ، وقدر قس أن البروتستانت

الفرنسيين كانوا ربع عدد السكان (٧١) تقريباً في ذلك العام . ويقول مؤرخ كاثوليكي : إن أصل المروق في روما - فساد رجال الكنيسة - لم يستأصل ، بل إنه قوى بفضل الاتفاقية البابوية بين ليو العاشر وفرانسيس الأول (٧٢) . وكانت البروتستانتية في الطبقتين الوسطى والدنيا إلى حد ما ، احتجاجاً ضد حكومة كاثوليكية كبحت جماح الاستقلال الذاتي للبلدية ، وفرضت ضرائب لا تحتمل ، وبددت الدخول ، وأزهقت الأرواح في الحرب . وكان النبلاء الذين جردهم الملوك من سلطانتهم السابق ينظرون بعين الحسد إلى الأمراء اللوثرين الذين انتصروا على شارل الخامس ، وربما أمكن استعادة إقطاع مماثل في فرنسا بإعلان استياء العامة من الناس على نطاق واسع من مظالم الكنيسة والحكومة . والحق أن نبلاء بارزين مثل جاسبار دي كوليني وشقيقه الأصغر فرانسوا دنديلو والأمير لويس دي كونديه وشقيقه انطوان دي بوربون قد شاركوا يجهد فعال في تنظيم ثورة البروتستانت .

وتبنت البروتستانتية الغالية في لاهوتها آراء كالفن في كتابه « النظم » ، فقد كان مؤلفه فرنسياً ولغته فرنسية واستهوى منطقته العقلية الفرنسية ، وكاد لوثر أن ينسى في فرنسا بعد عام ١٥٥٠ ، والحق أن اسم هوجنوت بالذات ورد من زيورخ عن طريق جنيف إلى بروفانس ، وفي مايو عام ١٥٥٩ شعر البروتستانت بأنهم أصبحوا من القوة إلى حد يمكنهم من إرسال مندوبين إلى أول مجمع مقدس عام لهم عقد سرا في باريس . وما أن حل عام ١٥٦١ حتى كان هناك ٢٠٠٠ كنيسة أخذت بأسباب الإصلاح الديني أو كالفينية في فرنسا (٧٣) .

وشرع هنري الثاني في سحق الهرطقة . ونظم المجلس النيابي لباريس ، بناء على تعليماته ، لجنة خاصة (١٥٤٩) لقمع الخروج على الرأي ، وأرسل من أدينوا إلى المحرقة ، وأطلق على المحكمة الجديدة اسم « الغرفة المتأججة » ، وقضى

مرسوم شاتوبريان (١٥٥١) بأن طبع أو بيع أو حيازة كتب الهرطقة يعد جريمة عظمى ، وأن الإصرار على الآراء البروتستانتية يعاقب عليه بالإعدام ، ونص على أن يتسلم المبلغون ثلث أموال المحكوم عليهم . وكان عليهم أن يبلغوا المجلس النيابي عن أى قاض يعامل الهرطقة باللين ، ولم يكن فى وسع أى رجل أن يعين قاضياً إلا إذا كانت عقيدته المحافظة لا يرقى إليها شك . وفى خلال ثلاث سنوات أرسلت « الغرفة المتأججة » ستين بروتستانتيا إلى الموت حرقاً ، وعرض هنرى على البابا بولس الرابع إقامة محكمة للفتيش فى فرنسا طبقاً للنموذج الرومانى الحديد ، ولكن المجلس النيابي اعترض على السماح لسلطة أخرى بأن تحمل محل سلطته ؛ واقترح أحد أعضائه ، آن دى بورج فى جرأة أن تتوقف كل مطاردة للهرطقة حتى يستكمل مجلس ترنت تعريفاته للعقبة المحافظة . فأمر هنرى بالقبض عليه وأقسم أن يراه وهو يحرق ، إلا أن القدر اختلس من الملك هذا المشهد .

وفى غضون ذلك كان قد أغرى بتجديد الحرب ضد الإمبراطور فإنه ، لم يستطع قط أن يصفح عن سجن أبيه وشقيقه وسجنه هو نفسه أمداً طويلاً . وكان يكره شارل بقدر حبه لديان . وعندما أعلن الأمراء اللوثريون مقاومتهم الحاسمة للإمبراطور من أجل المسيح والإقطاع سعوا إلى التحالف مع هنرى ودعوه للاستيلاء على اللورين ، فوافق على هذا فى معاهدة شامبور (١٥٥٢) . وقام بحملة سريعة أدارها بكفاءة واستولى بعد عناء قليل على تول ونانسى و Metz وفردون . وكان شارل أكثر استعداداً للتسليم بالنصر للبروتستانتية فى ألمانيا منه للتسليم به لآل فالوا فى فرنسا ، فوقع معاهدة صلح ذليلة مع الأمراء فى باسوا ، وهرع لضرب الحصار على الفرنسيين فى Metz . وأقام فرانسيس ، دوق دى جيز شهرته هناك على ما أبداه من مهارة وعناد فى الدفاع . واستمر الحصار من ١٩ أكتوبر إلى ٢٦ ديسمبر سنة ١٥٥٢ ، ثم سحب شارل جنوده الذين نحارت قواهم وهو شاحب الوجه ، زائغ البصر

أبيض اللحية كسيحاً وقال : « إنى لأرى جيداً أن الحظ يشبه امرأة ،
تؤثر ملكاً فتياً على إمبراطور عجوز (٧٤) ، وأردف قائلاً : « وقبل أن تمضى
ثلاث سنوات سأتحول إلى رجل يربط حول وسطه شريطاً من حرير أى إلى
راهب فرنسيسكانى (٧٥) » .

وفى عام ١٥٥٥ - ٥٦ تنازل لابنه عن سلطته فى الأراضى المنخفضة
وإسبانيا ، ووقع مع فرنسا هدنة فوسيل ، وغادر إسبانيا (١٧ سبتمبر
سنة ١٥٥٦) ، وظن أنه أورث فيليب مملكة تنعم بالسلام ، ولكن هنرى
أحس أن الموقف يدعو إلى هجوم آخر على إيطاليا . ولم يكن لفيليب أى
شهرة كقائد ، وكان متورطاً على غير ما توقع فى حرب البابا بولس الرابع ،
وخيل له أن أمامه فرصة ذهبية . فأرسل جنز ليستولى على ميلان ونابلى ،
وتأهب لملاقاة فيليب فى ساحات القتال القديمة فى شمال شرقى فرنسا . وأظهر
فيليب أنه أهل لمقابلة الموقف واقترض مليون دوكات من أنطون فوجر
وأغرى ماري ملكة إنجلترا بالدخول فى الحرب . وفى سان كينتان
(١٠ أغسطس سنة ١٥٥٧) قاد الدوق أمانويل فليبرت أمير سافوى جيوش
فيليب الموحدة إلى نصر كاسح وأخذ كولينى ، ومونمورنسى أسيرين
وتأهب للزحف على باريس . وكانت المدينة فى ذعر ، وبدأ الدفاع عنها
مستحيلاً ، واستدعى هنرى جنز وجنده من إيطاليا ، فعبر الدوق فرنسا
وفاجأ كاليه بحركة سريعة عجيبة واستولى عليها (١٥٥٨) ، وكانت إنجلترا
تحتفظ بها منذ عام ١٣٤٨ ، وكان فيليب يكره الحرب ويثوق إلى العودة
لإسبانيا ، فافتتح توا بتوقيع معاهدة كاتو - كامبريزى - (٢ أبريل سنة
١٥٥٩) وبمقتضاها وافق هنرى على أن يبقى شمال الألب ، ووافق فيليب على
أن يدهه يحتفظ باللورين وبكاليه - على الرغم من دموع ماري . وفجأة
أصبح الملكان صديقين ، وقدم هنرى ابنته إليزابث لتكون زوجة لفيليب ،
وتعهد بزواج شقيقته مارجريت اف برى من أمانويل فليبرت الذى استعاد

وقتذاك سافوى ، ونظم مهرجان ضخيم حفل بالمبارزات والمآدب
وليالى الزفاف .

وهكذا بينما ظل فيليب الحذر فى الفلاندرز تجمع الأعيان من الفرنسيين
والفلمنكيين والأسبان حول القصر الملكى ليتورنل فى باريس ، وعلقت قوائم
فى شارع سان أنطوان الذى يضم مظلات وشرفات مزينة بزخارف بهية ،
وانطلق الجميع يمرحون كما لو كانوا يسمعون ناقوس زفاف . وفى ٢٢ يونية
استقبل الدوق ألفا ، باعتباره وكيلا لفيليب اليزابث باعتبارها ملكة لأسبانيا ،
وأصر هنرى ، وهو وقتذاك فى الأربعين من عمره على دخول المباراة .
وفى مثل هذه المبارزات كان النصر يقضى به لراكب الفرس الذى يحطم
ثلاث حراب على درع خصمه ، دون أن يرمى عن الفرس . وقام هنرى
بهذا العمل أمام الدوق دى جيز والدوق دى سافوى اللذين عرفا كيف
يقومان بدورهما الصحيح فى المسرحية ، بيد أن خصماً ثالثاً هو مونتهجومرى
سمح فى حمق للبقية الباقية الحادة من السلاح بالمرور تحت القناع الحديدى
للملك بعد أن حطم حربة على درع الملك ، فاخترقت عين الملك ووصلت
إلى المخ . وظل يرقد تسعة أيام فاقد الوعى ، وفى اليوم التاسع من يوليو
احتفل بزواج فيليبرت ومرجريت ، وفى اليوم العاشر من يوليو مات الملك
وانسحبت ديان إلى آنيه ، وعاشت بعد ذلك سبع سنوات ، وارتدت
كاترين دى مديتشى التى كالت ظمأى لخبه ؛ ثياب الحداد بقية حياتها .